المحظور اللغوي
بين اللامساس والتلطف في التعبير

بدر بن سالم بن جميل القطيطي
تخصص اللغة (النحو والصرف)
سلطنة عمان، كلية العلوم التطبيقية بالرستاق

ملخص البحث

الإنسان اجتماعي بطبعه، يعيش في ظل مجتمع يمثل له سلطة، ويفرض عليه احتراما لغويا، ومن ثَمَّ كانت مطالبته بالاجتماعية في إنتاجه مطالبةً طبيعيةً؛ لأنه لا ينتج لنفسه، وإنما ينتج لمجتمعه في شتى صوره، فلا بدَّ أن يحترم منتجُ الرسالة سلطةَ المجتمع المتلقية، مما يفرض عليه قيودا لغوية تُراعى عند إنتاجه اللغوي، مما يجعله يتحاشى استخدام لفظة ما، أو تركيب معين لسبب قد يعود إلى طبيعة المتكلم، أو سلطة المتلقي، وهذا التحاشي في استخدام بعض الألفاظ هو ما يعرف في الدرس اللغوي بالمحظور اللغوية (Taboo)، فهو صورة من صور تأثير سلطة المجتمع في إنتاج المثقف اللغوي، مما يفرض عليه احترام قيود المجتمع؛ جعل تراكيبه مرنة تتناسب وسلطة المتلقي.

إن المحظور اللغوية ظاهرة لغوية شائعة في اللغات الطبيعية، تعبر عن مواقف البشر، وتعكس نفسيتهم، وعقليتهم؛ وهي ليست قضية وليدة العصر الحديث أو أحد إفرازاته، وإنما تضرب بجذورها العميقة في أزمان سحيقة، فقد أدرك الجاحظ أبعاد هذه الظاهرة، فألزم المرسل بضرورة انتقاء ألفاظ دون ألفاظ؛ لسبب أو لآخر، مما أكسبه ثراء معجميا، وتعبيرا تتزاحم فيه الحقيقة والمجاز.

Abstract

Human beings are sociable by nature as they live in a society that has rules and requires them to respect each others' language. Therefore, the society emphasizes on the importance of using proper language and forbids using taboo language. All these community constraints make people use suitable and respectable forms and structures that fit the society's expectations and needs.

The language taboo restriction is a common phenomenon in all existing languages. As language expresses daily situations and reflects their psychology and mentality. It is not a novice idea, but it had been used many years ago. For instance, Al Gahaidh realized all dimensions of this phenomenon. Hence, he made the speaker select his appropriate expressions instead of others to convey his/her message. For this reason, his dictionaries were found rich with literal and idiomatic meanings and expressions.

مقدمة البحث

يقوم هذا العمل الموسوم بـ(المحظور اللغوي بين اللامساس والتلطف في التعبير) على محورين رئيسين هما: أسباب المحظور اللغوي في لساننا العربي، ووسائل تحاشي الوقوع في المحظور اللغوي. يمثل المحور الأول اللامساس، ويمثل الآخر التلطف في التعبير، وسيؤخذ مفهوم المعالجة طيلة البحث على أنه يعني المعالجة بالوصف والتحليل، ويمكن صياغته في شكل سؤال، وهو: كيف يتواصل شركاء الاتصال في ظل المحظور اللغوي؟

إن هذا الإشكال هو إشكال واقعي وجد له ما يبرره في المعطيات اليومية لاستعمالات لساننا، وهو محاولة لإبراز أهمية الجانب الاجتماعي في دراسة اللغة، وبيان الصلة الرابطة بين اللغة وحياة المجتمع بعرض صورة من صور تأثير السلطة المتلقية في لسان المثقف منتج الرسالة، لذلك ابتعدنا –قدر الإمكان– عن التناول المتعالي هذا الموضوع، وكأنه حبيس الكتب، أو كونه ظاهرة محظورة لا يجوز الاقتراب منها، أو الحوم حول حماها؛ لأنها جزء لا يتجزأ من كفاءة المستعمل اللغوية.

من تبعات هذا الافتراض اصطباغ جل مفاهيمه المعتمدة في وصف الظاهرة بصبغة واقعية إنسانية. فالمخزون المعجمي، والعناصر المجازية، والكنايات حاضرة بشكل أو بآخر في ذهن مستعمل اللسان ، وهي أدواته في تخطي هذه الظاهرة أو تحاشيها، لذا يكتنف عنوان العمل محوران: يمثل الأول موضوعا له، وهي دواعي ظاهرة المحظور اللغوي في لساننا، وقد تبين لنا من أهم الأسباب الجالبة المحظور اللغوي، ودواعيه: الخجل، والاشمئزاز، والخوف، والتقديس.

أمَّا الآخر فيمثل وجهة نظر الباحث إلى هذا الموضوع، وهو طريقة معالجة تلك المظاهر في ذهن مستعمل اللسان العادي، ببيان أهم سبل رفع المحظور اللغوي،

أو محاولة التقليل منه كاستخدام الكناية أو المجاز، أو الترادف، أو التمهيد، أو الاستعانة بالكلمة أجنبية، أو اللجوء إلى البديل عن اللفظة كالرمز أو الإشارة.

لهذا أقمنا هذا العمل على تأسيس بعض الحقائق، ونسعى في ضوئها إلى تحقيق ثلاثة أهداف، هي: الوقوف على ظاهرة المحظور في لساننا العربي. وبيان أهم المواطن هذه الظاهرة. ودراسة سبل رفعها، أو محاولة التقليل منها.

مصطلحات البحث.

من أكثر المصطلحات التي سترد على قارئ هذا العمل (المحظور أو اللامساس) (التلطف)، فضلا عن كلمتي (المثقف، السلطة) فرأينا قبل البدء في العمل أن نوضح المقصود من هذا المصطلح، فالمثقف يمثل هنا المرسِل، ومنتج الرسالة، أما سلطة المجتمع فستمثل متلقي الرسالة.

تظهر نفوذ سلطة المجتمع على المثقف في منعه من الألفاظ التي ستشكل ظاهرة المحظور اللغوي، فالمثقف المرسل عند إرادة التعبير عن جملة معينة سيتجه إلى الأنساق اللغوية التي تسمح بها سلطة المجتمع، والتي تراها كفيلة بأداء الغرض من الحدث اللغوي دون المساس بالمحظور منها، لذا ينبغي للمرسل المثقف أن يتلطف في تعبيره، فيحرص على انتقاء ألفاظ رسالته، ويتحاشى استخدام ما يكون من محظورات المجتمع.

أمَّا مصطلح المحظور فهو محور العمل، وأكثره وردودا على المتلقي، يرادفه في الدلالة – إن صح الترادف – اللامساس، غير أننا سنركز القول على مصطلح (المحظور)؛ لكثرة جريانه في العمل، ولأن معنى (اللامساس) يدور حول معنى الحظر؛ أي: حظر مَسِّ الألفاظ، فهو نفي المَسِّ، فهو معنى يصب في معنى الحظر؛ أي: المنع والحجر، جاء في قصة موسى (عليه السلام) والسامري: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾(الإسراء:20)؛ أي: اذهب تائها في الأرض

طول حياتك، وأنت تقول: لا مِسَاسَ؛ أي: لا يَمُسُّنِي أَحَدٌ، ولا أَمُسُّهُ؛ لما يحصل من الضرر العظيم، لِمَن تَمُسُّهُ، أو يَمُسُّكَ، قال صاحب الكشاف:"عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها، وأوحش؛ وذلك أنه مُنع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته، ومكالمته، ومبايعته ومواجهته، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعض"[1].

أمَّا المحظور فاسم مفعول مشتق من الفعل الثلاثي المجرد المبني للمجهول (حُظِرَ)، والمصدر منه (حَظْر، حِظار)، ويدور –معنى المصطلح؛ أي: المحظور– على معنى المنْع، والحجْر، يقول أحمد بن فارس (ت 395 هـ): "الحاء والظاء والراء أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على المنْع. يقال: حظرتُ الشيء أحْظُرُه حَظْراً، فأنا حاظِرٌ، والشيء محظور"[2].

قال ابن الجزري (ت 833 هـ):"أَمَّا الْحَظْرُ فَمَعْنَاهُ الْمَنْعُ وَالْحِيَازَةُ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَائِزٍ لِشَيْءٍ مَانِعٌ غَيْرَهُ مِنْهُ"[3]، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾؛ أي: مَمْنُوعًا، حول هذه الدلالة يقول أبو فراس الْحَمْدَانِي (ت 357 هـ):

أَلْزَمَنِي ذَنْبًا بِلَا ذَنْبٍ وَلَجَّ فِي الهِجْرَانِ وَالعَتْبِ
أُحَاوِلُ الصَّبْرَ عَلَى هَجْرِهِ وَالصَّبْرُ مَحْظُورٌ عَلَى الصَّبِّ

تقول العربُ: لا حِظَارَ عَلَى الأَسْمَاءِ؛ أي: أنه لا يُمْنَعُ أَحدٌ أَنْ يُسَمِّي بما شَاءَ، أَو يتسمَّى بِهِ، ومنه قولهم: الحظيرة للماشية، ونحوها، حيث تُحبَسُ فيها بسياجٍ، أو ما شابه، فيُحال بينها وبين الخروج من الحظيرة، أو الاعتداء عليها من خارجها؛

[1] الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 2006، ج 3 ص 64.

[2] أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجليل، ط 1، 1991، مادة: (ح، ظ، ر).

[3] ابن الجزري (أبو الخير محمد بن الجزري الدمشقي): التمهيد في علم التجويد، تحقيق علي البواب، الرياض، مكتب المعارف، ط 1، 1985م، ص 5.

لوجود المانع. والحظيرة تعمل للإبل من شجر؛ لتقيها الريح والبرد، ولم تعدل المعاجم اللغوية عن مقاييس اللّغة في معنى الحظر[1]، قال الخليل (ت 170 هـ):" كلُّ من حَظَرَ بَيْنَكَ وبين شيْءٍ فقد حَظَرَه عَلَيكَ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(طه: 97)؛ أي: ممنوعاً، وكُلُّ شَيءٍ حَجَز بين شيئَيْن فهو حِجازٌ وحِظارٌ "[2].

أخذ بهذا المعنى كثير من المعاجم اللغوية قال ابن سيده (ت 458 هـ):" حَظَرَ الشَيْءَ يَحظُرُه حَظْراً وحِظَاراً حَظَرَ عَلَيْه: مَنَعَه، كُلُّ مَنْ حَال بَيْنَكَ وبين شيْءٍ فقد حَظَرَه عَلَيكَ "[3]، وقال ابن منظور (ت 711 هـ): " حَظَرَ الشيءَ يَحْظُرُه حَظْراً

---

[1]- قال أبو بكر ابن دريد الأزدي (ت 321 هـ):"حَظَرْتُ الشيء أحظُره حَظْراً فهو محظور، إذا حُزْتَه."ابن دريد (أبو بكر بن محمد بن الحسن الأزدي): جمهرة اللغة، تحقيق رمزي بعلبكّي، بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1987م، مادة: (ح، ظ، ر).

– قال أبو منصور الأزهري (ت 370 هـ):"كل من حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك"أبو منصور بن محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، د. ط، د. ت، مادة: (ح، ظ، ر).

– قال الصاحب إسماعيل بن عبَّاد (ت 385 هـ):"حظر الحِظَارُ حائطُ الحَظِيرةِ تُتَّخَذُ من خَشَبٍ أو قَصَبٍ، وصاحِبُها مُحْتَظِرٌ؛ إذا اتَّخَذَها لنَفْسِه، فإذا لم يَخْتَصَّ بها فهو مُحَظِّرٌ. وكُلُّ ما حالَ بَيْنَكَ وبين شَيْءٍ فقد حَظَرَه عليك"(الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، بيروت، عالم الكتب، ط 1، 1994، باب الحاء والظاء مع حروفهما، ج 3 ص 59) .

– قال أبو العباس الفيومي (ت 770 هـ):"حَظَرْتُهُ حَظْرًا مِنْ بَابِ قَتَلَ مَنَعْتُهُ، وَحَظَرْتُهُ حُزْتُهُ، وَيُقَالُ لِمَا حَظَرَ بِهِ عَلَى الْغَنَمِ وَغَيْرِهَا مِنْ الشَّجَرِ لِيَمْنَعَهَا وَيَحْفَظَهَا: حَظِيرَةٌ، وَجَمْعُهَا حَظَائِرُ وَحِظَارٌ، مِثْل كَرِيمَةٍ وَكَرَائِمَ وَكِرَامٍ، وَاحْتَظَرْتُهَا إذَا عَمِلْتَهَا فَالْفَاعِلُ مُحْتَظِرٌ"(أبو العباس أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية ، د. ط ، 1978 م، مادة: (ح، ظ، ر).

– قال الفيروزآبادي (ت 817 هـ) صاحب القاموس:"حَظَرَ الشيءَ وعليه: مَنَعهُ وحَجَرَ، واتَّخَذَ حَظِيرَةً كاحْتَظَرَ، والمالَ: حَبَسَهُ فيها، والشيءَ حازَهُ"الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1987م، مادة: (ح، ظ، ر).

[2]- الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، تحقيق مهدى المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بيروت، مطبعة دار ومكتبة الهلال، د. ط، د. ت، باب الراء فصل الحاء، ج 3 ص 196.

[3]- ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2000، مادة: (ح، ظ، ر)، ج 3 ص 282.

وحِظاراً، وحَظَرَ عليه مَنَعَهُ، وكُلُّ مَا حَالَ بينَكَ وبَينَ شيءٍ فَقَد حَظَرَهُ عليكَ"[1]، وجاء في تاج العروس"حَظَرَ الشَيْءَ يَحظُرُه حَظْراً وحِظَاراً حَظَرَ عَلَيْه: مَنَعَه، وحَظَر عليه حَظْراً: حَجَرَ ومَنَعَ. وكُلُّ ما حَال بَيْنَكَ وبين شيْءٍ فقد حَظَرَه عَلَيكَ . . . حَظَرَ المَالَ يَحْظُرُه حَظْراً. حَبَسَهُ فِيها؛ أي: في الحَظِيرة من تَضْيِيق، حَظَر الشْيءَ: حَازَهُ كأنه مَنَعَه من غيره"[2].

إن الدائرة الدينية هي أقربُ دائرة معرفية إلى مصطلح (الحظْر) في مستويات اللغة العربية الاصطلاحية؛ لذا بدأ به ابن منظور (ت 711 هـ) تعريفه، يقول:" الْحَظْرُ الحَجْرُ وهو خلاف الإباحَةِ والمَحْظُورُ المحرَّم "[3]، وقد سبقه إلى هذا المعنى أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ) في معجم الصحاح[4].

ذكر هذا المعنى –قبل ابن منظور– الزمخشري (ت 538 هـ)، والمُطَرِّزِي (ت 610 هـ)، جاء في أساس البلاغة:"حظر عليه كذا: حيل بينه وبينه،﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، وهذا محظور: غير مباح "[5]، وقال المطَرِّزِي:" الحَظْرُ المَنْعُ وَالْحَوْزُ،

---

[1]- ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ط، د. ت، مادة: (ح، ظ، ر).

[2]- الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي): تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، دار صادر، د. ط، 1966م، مادة: (ح، ظ، ر).

[3]- ابن منظور: لسان العرب، مادة: (ح، ظ، ر).

[4]- قال الجوهري (ت 393 هـ) في مادة (حظر):"الحَظْرُ الحجر وهو ضد الإباحة، وحَظَرَهُ فهو مَحظُورٌ؛ أي: محرم، وبابه نصر، والحِظَارُ والحَظِيرةُ تُعمل للإبل من شجر؛ لتقيها البرد، والريح، والمُحْتَظِر بالكسر الذي يعملها، وقُرئ: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾، فمن كسره جعله الفاعل، ومن فتحه جعله المفعول به"ينظر الجوهري (إسماعيل بن حماد): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1987، مادة: (ح، ظ، ر).

[5]- الزمخشري: أساس البلاغة، إشراف قسم التحقيق في دار النفائس، دمشق، دار النفائس، ط 1، 2009، مادة: (ح، ظ، ر)..

وَمِنْهُ حَظِيرَةُ الْإِبِلِ، وَالْمَحْظُورُ خِلَافُ الْمُبَاحِ؛ لِأَنَّهُ مَمْنُوعٌ، مِنْهُ وَيُقَالُ: احْتَظَرَ إِذَا اتَّخَذَ حَظِيرَةً لِنَفْسِهِ وَحَظَرَ لِغَيْرِهِ"[1].

أشار إلى المعنى الديني –بعدهما– صاحب القاموس، يقول:"والمَحْظُورُ: المُحَرَّمُ،﴿ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾؛ أي: مَقْصُوراً على أُخْرَى طائِفَةٍ دُونَ"[2]. وقد حصر الجرجاني (ت 816 هـ) مصطلح (الحظر) في المستوى الديني، يقول: "الحظر لغة جمع الشيء في حظيرة، والمحظور الممنوع، واصطلاحا ما يثاب على تركه"[3]، ومن هنا انبثقت القاعدةُ الفقهيةُ في أصول الفقه الإسلامي (الضرورات تُبيحُ المحظورات).

من دائرة هذا المعنى يقول محمود سامي البارودي (ت 1904م):

وَكَيْفَ لا تَبْلُغُ الأَفْلاَكَ دَوْلَةُ مَنْ أَضْحَى بِهِ الْعَدْلُ حِلاًّ غَيْرَ مَحْظُورِ ؟

أمَّا التلطف فمصدر على وزن (تَفَعُّل)، وأصله المجرد (لطف) والمادة تدور حول معنى عام واحد هو الترفق[4]، جاء في كتاب العين: " اللّطيف: الشّيء الّذي لا يتجافَى من الكلام وغيره "[5].

قال الجوهري (ت 393 هـ) في الصحاح:"اللُّطْفُ في العمل الرفق به، واللُّطْفُ من الله تعالى التوفيق والعصمة، و أَلْطَفَهُ بكذا بَرَّه به، . . .، و المُلاطَفَةُ المباراة، و التَّلَطُّفُ للأمر الترفق له"[6].

---

[1] المطرّزي (أبو الفتح ناصر الدّين): المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب، مكتبة دار الاستقامة، ط 1، 1979، مادة: (ح، ظ، ر)، ج 2 ص 13.

[2] الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة: (ح، ظ، ر).

[3] الجرجاني (علي بن محمد بن علي): التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 1985، حرف الحاء، وينظر حرف الظاء.

[4] أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، مادة: (ل، ط، ف).

[5] الجوهري: الصحاح، مادة: (ل، ط، ف).

[6] الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، باب الطّاء واللام والنّون معهما، ج 7 ص 429.

عقد أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) في الصناعتين فصلا في التلطف، جاء في "هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه"[1]، وقال الزمخشري (ت 538 هـ) في أساس البلاغة:"ولطفت بفلان: رفقت به، وأنا ألطف به إذا أرأيته مودة ورفقاً في المعاملة، وهو لطيف بهذا الأمر: رفيق بمداراته"[2].

قال ابن منظور (ت 711 هـ):"يقال: لَطف به، وله، بالفتح، يَلْطُف لُطْفاً إذا رَفَقَ به، فأَما لَطُف بالضم يَلْطُف فمعناه صغُر ودقَّ، لَطف فلان يَلْطُف إذا رَفَق لُطْفاً، ويقال: لَطَف اللّه لك؛ أَي: أَوْصَل إليك ما تُحِب برِفْق"[3].

إن هذا العمل لا يبتعد عن حمى هذه المعاني، فعموم دلالة مصطلح (الحظر) تشير إلى المعنى اللغوي (المنع والحجْر)، وقد استأثر درس المحظور اللغوي باهتمام العلماء العرب القدامى والمحدثين، فالمحظور ذلك اللفظ الذي يجتنب في سياقات معينة، ويستبدل به ألفاظ أخرى وهو ما يمثل جانب التلطف في التعبير، فهو يلجأ إليه تلطفا بالمستمع، وترفعا عن محظور ألفاظه، سنحاول في الصفحات القادمة تتبع المصطلحات الموضوعة على هذه المحظور اللغوي في العربية، ومحاولة الوقوف على أسبابه في تراكيبنا، وما الضرورات التي تبيحه؟

الباب الأول: مدخل دراسة الظاهرة اللغوية.

يهدف هذا المدخل النظري إلى تعريف القارئ بأهم المقاربات اللغوية العربية والغربية التي اهتمت بالدلالة والخطاب، كون تبليغ المعنى هو وظيفة اللغة الجوهرية في حياة كل أمة، وهو المحك الرئيس والهدف الذي تسعى أيُّ لغة من اللغات إلى

[1] أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل): الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق لي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط 1، 1986، ص 427.

[2] الزمخشري: أساس البلاغة، مادة: (ل، ط، ف).

[3] ابن منظور: لسان العرب، مادة: (ل، ط، ف).

إدراكه، لهذا سنعرض وجهات النظر اللساني الحديث، من خلال عرض جهود هذه المدارس في دراسة الدلالة والخطاب في الألسنة البشرية عامة، وسنعرض من خلاله أهم ملامح اهتمام المدارس اللسانية الحديثة بالمعنى، وبيان أهم جهودها اللغوية في دراسة ظاهرة المحظور اللغوي في الألسنة البشرية، وذلك من خلال تناول آراء بعض علماء اللغة كاللغوي دي سوسير (De. Saussure)، واللغوي أوستن (Austin)، وتلميذه سيرل (Searle)، واللغوي غرايس (Grice) الذي يُعَدُّ من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي، فضلا عن علماء العربية كالجاحظ (ت 255 هـ)، وأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)، وأبي حسن القرطاجني (ت 684 هـ)، وغيرهم.

سنتناول في الفصل الآخر من هذا الباب القدرة التواصلية، وركائز نجاحها؛ لبيان أهم العوامل لتحقيق مقاصد الرسالة، والظروف لإنجاح الحدث اللغوي الذي يحقق وظيفته النفعية والإبلاغية، وسنعرض من خلاله أهم جهود البلاغيين العرب، وبيان نظرتهم في جعلهم لكل مقام مقالا.

قبل الدخول في عناصر المدخل نفتتحه باحتياط لزومي، وهو أن دراسة التأثير والتأثر بين المثقف (المتحدث) والسلطة (المتلقي) لن تكون مفتوحةً على مصراعيها؛ لأن منوالَ هذا التأثير والتأثر في أسلوب المتكلم، ولغته، واسعٌ لا يحاط ببحث واحد؛ لكونه يبحث في المعنى، فكان ملتقى الدراسات المختلفة: لغوية، أدبية، قانونية، اجتماعية، وفلسفية؛ وهذا شأن مسائل المعنى؛ لأن طبيعة المعنى وتحصيله يتداخل فيه كل ذلك، فكل له من المعنى نصيب في النظر والبحث، وكل يراه من زاويته، فالرابط بين اللسانيات التداولية هو كون القدرة التواصلية المحور الأساس فيها؛ فهي تتناول التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي[1]، فينتقل من المستوى اللغوي، والنحوي، والنفسي، إلى المستوى الاجتماعي ودائرة التأثير والتأثر،

[1]- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، لبنان، مركز الإنماء القومي، د. ط، د. ت، ص 96.

من خلال استعمال اللغة لتحقيق التواصل. لذا فلا غرابة من الاعتراف بأننا لن نستطيع أن نحيط بعناصر هذا الاتجاه جميعها، أو نعرض كل قضاياه، أو أن نوفيها الحق كله؛ لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث؛ لاتساع المادة.

لهذا سيكون هذا العرض محاولةً مقتضبةً أردناه إضاءةً – ولو خافتة – في معالم الإجابة الضرورية عن القضية المدروسة، وهي قضية المحظور اللغوي؛ أي: في معالم تأثير المجتمع أو المتلقي في أسلوب المتكلم، ولعلها تكون كذلك.

1. 1. المقاربات اللغوية التي اهتمت بالدلالة والخطاب.

إن اللغة نظام يُتَوَاصَلُ بواسطتها بين أفراد المجتمع، فهي ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس، يرى المفكر الإغريقي أرسطو (Aristotle) (ت 322 ق. م) أن الكلام نتاج صوتي مصحوب بعمل الخيال من أجل أن يكون التعبير صوتا له معنى[1]. يقول أوتو يسبرسن (Otto Jespersen):"إن جوهر اللغة نشاط إنساني، نشاط من قبل الفرد ليجعل نفسه مفهوما من الآخرين، ونشاط من قبل الآخرين ليفهموا ما يدور في عقل الفرد"[2].

قال ابن جني (ت 392 هـ): "اللغةُ أصواتٌ يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"[3]. الغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، لهذا يُعَدُّ التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد وظيفة اللغة البشرية الأساس، فهو المحك الرئيس، والهدف الذي تسعى أيُّ لغة من اللغات إلى إدراكه؛ لأن وظيفة اللغة الجوهرية في حياة كل

[1]- محمد حماسة: النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، القاهرة، دار غريب، ط 2، 2006، ص 47.

[2]- المرجع السابق، ص 47.

[3]- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني): الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2001، ج 1، ص 87.

أمة هي تبليغ المعنى، وحمل الأفكار، ونقل المفاهيم، وإقامة روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة، وبها يتم التقارب بينهم، والتشابه، والانسجام[1].

على هذا المبدأ بنى أغلب اللسانيين نظرياتهم فيطلق رومان جاكوبسون (R. Jakobson) عليها وظيفة إقامة الاتصال. ويقول أندري مارتينيه (Andre Martinet) في هذا الصدد: " في نهاية المطاف فإن التبليغ؛ أي: التفاهم المتبادل، هو الجدير بالاعتبار كوظيفة مركزية لهذه الوسيلة التي هي اللسان"[2]. وحاول هاليداي (Halliday) تقديم حصر بأهم وظائف اللغة، فكانت الوظيفة التفاعلية من أهم هذه الوظائف "وهي وظيفة (أنا وأنت) تستخدم اللغة للتفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي؛ لكون الإنسان كائنا اجتماعيا لا يستطيع الفكاك من أسر جماعته, فنستخدم اللغة في المناسبات, والاحترام, والتأدب مع الآخرين"[3].

اهتمت الدراسات اللغوية – والمدارس اللغوية المختلفة – بالدلالة والتخاطب اهتماما مركزا، فدرست المدرسة البنيوية الدلالة والتخاطب، فقد تناول اللغوي دي سوسير (De. Saussure) اللغة في حيز الاستعمال، متجاوزةً حدود الوضع الأصل، وإن كان يبني عليه؛ وذلك لأن مقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغوي المجرد فقط، ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد مقاصد المتكلمين، يستند فيه المتخاطبون إلى الوضع اللغوي، ويتجاوزونه تلبية لمقاصدهم، وأغراضهم الدلالية.

---

[1]- مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 1، 1988، ص 53، ومهدي عرار: ظاهرة اللبس في العربية جدل التواصل والتفاصل، عمَّان، دار وائل، ط 1، 2003، ص 13.

[2]- اندري مارتني: مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة سعدي الزبير، الجزائر، دار الآفاق، د. ط، د. ت، ص 14.

[3]- سالم مبارك الفلق: اللغة العربية التحديات والمواجهة، اليمن، حضرموت، مكتبة الحسيني ، د. ط، د. ت، ص 11.

لهذا كانت التداولية – كمدرسة حديثة – تدرس "استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية"[1]،أو تدرس المدرسة التداولية " كيف يكون للمقولات معانٍ في المقامات التخاطبية"[2]. فهي تعني دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدًا اللسانيات[3].

إن دراسة عملية التواصل أو الاتصال قديمة، تعود جذورها إلى الدراسات التنظيرية الأولى عند الجاحظ (ت 255 هـ)، وابن قتيبة (ت 276 هـ)، وأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)، وأبي الحسن القرطاجني (ت 684 هـ)، وغيرهم، لكنها كانت تأخذ الطابع المعياري، مهتمة بالأثر الناتج مباشرة عن الرسالة، والشروط التي تجعل الخطاب ناجحاً، وفي هذا ملامح التداولية الحديثة.

ركز هؤلاء المنظرون على المرسل، والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والقصد، ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام، فإنها أيضاً تعد جوهر النظرية التداولية، يقول حمادي صمود:" لما كانت غاية المتكلم من السامع الفهم والإفهام – بالدرجة الأولى– تركز جهد أبي عثمان الجاحظ على شفافية، وهي قدرة العلامة والنص على الإشارة إلى ما سواهما، من هنا انطبعت محاولة الجاحظ بطابع نفعي واضح، يمكن أن يعدَّ –بدون مبالغة– أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى بنفعية الخطاب"[4].

---

[1]- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص 8.

[2]- محمد يونس: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، بيروت، دار الكتاب الجديد، د .ط، د. ت، ص 13.

[3]- القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، تونس، المركز الوطني للترجمة، 2010، ص 21.

[4]- حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص ص 300 – 301، وراضية بو بكري: التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقاربة نظرية، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد التاسع والتسعون بعد المائة الثالثة، يوليو – تموز، 2004، ص 3.

قد اعتنى عدد من الباحثين الغربيين بمعالجة هذه الظاهرة التي تعين دلالة التركيب، وتسهم في تأويلها، وقد اعتنى العالم اللغوي أوستن (Austin) بلغة التداول والخطاب، فأوصى بمراعاة الجانب الاستعمالي طبقا لمقامات التخاطب، فموضوع الدراسة – عنده – ليس الجملة، وإنما إنتاج التلفظ في مقام خطاب، وكان قد رأى أن الفلسفة حادت عن الصواب عندما اعتدت بالأقوال الجازمة وحدها، لما تبين له أن ليست اللغة مجرد أداة لنقل الأفكار، ووصف الأشياء، وإنما هي ميدان ننجز فيه أعمالا لا تنجز إلا في اللغة وباللغة.

قال جون ليونز (John Lyons): "لقد كان هدف أوستن (Austin) في البداية على الأقل أن يتحدى ما كان يُعَدُّ مغالطة وصفية، وهي فكرة أن الوظيفة الوصفية الفلسفية المهمة الوحيدة للغة هي إنتاج عبارات خبرية صادقة أو كاذبة، وعلى نحو أدق، كان أوستن (Austin) يتهجم على رأي عالم التحقق المرتبط بالفلسفة الوضعية المنطقية التي تفيد أن الجمل تكون ذات معنى فقط إذا كانت تعبر عن قضايا يمكن التحقق منها أو تفنيدها"[1].

لاحظ أوستن (Austin) أن الأخبار موصولة العرى بالعناصر المقامية، شأنها في ذلك شأن الإنشاءات، فكان هاجسه الشاغل الإجابة عن السؤال: (ماذا نفعل عندما نتكلم ؟).

يرى أوستن (Austin) أن ما نفعله يتجلى في ثلاثة أعمال تعد جوانب مختلفة لعمل خطابي كامل تختزل الوظائف اللسانية المختلفة، على النحو الآتي: (عمل القول) يراد به تركيب الألفاظ في جمل مفيدة طبقا للأعمال الفرعية الثلاثة الآتية: الصوتية، والتركيبية، والدلالية. و(عمل مقصود بالقول) هو العمل الإنجازي الذي يعد قطب الرحى لنظرية الأعمال اللغوية، والذي غدت تُعرف به. و(عمل التأثير بالقول)

[1]- جون ليونز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق، مراجعة يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1987، ص 191 .

هو كل ما يصحب فعل القول من آثار لدى المخاطب، كالإقناع، والتضليل، والتثبيط، ونحو ذلك.

جاء بعد أوستن (Austin) تلميذه سيرل (Searl)، فسعى سعي معلمه إلى إكساب هذه النظرية نضجا، وضبطا، ومنهجية، وصياغتها ضمن نظرية محكمة، كان أبرزها " انقسام عمل القول إلى قسمين: الفعل النطقي، والفعل القضوي. ونصه أن العمل اللغوي هو وحدة الاتصال اللغوي الصغرى، وأن للقوة الإنجازية دليلا يدعى دليل القوة الإنجازية، الغرض منه إظهار نوع العمل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بعقب نطقه الجملة "[1].

يعد العالم اللغوي غرايس (Grice) من أهم فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي، وهو من أهم الباحثين المطورين التداولية كمجال يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر، فقد كان شُغل الفيلسوف غرايس (Grice) منصبا على الوصول إلى طريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، فيُعنَى بدراسة التواصل (Communication) بين باث (Sender) ومتلق (Sent to).

أو بعبارة أخرى يُعنَى بدراسة الرموز التي يستخدمها المتكلم (Speaker) في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معينة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطَب في الكلام.

اهتم غرايس (Grice) بضبط المبادئ التي تتحكم في كيفية قول شيء وإرادة آخر، وكيفية سماع قول ما، وفهم سواه. والحل الذي يقترحه لهذا الإشكال هو أن توصف ظاهرة الاستلزام المحادثي انطلاقا من مبدأ التعاون، لكون مصدر الاستلزام يتجلى في الخرق المقصود لأحد المبادئ الأربعة الآتية: الكمية، والكيفية، والملاءمة، والجهة.

[1]- محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2002، ص 47.

كلما خُرِق أحد هذه المبادئ الأربعة أو انتهك، صارت العبارة مرادا بها غير معناها الحرفي. وقد عبر أحمد المتوكل عن ذلك بصوغ القاعدة المنطقية الآتية: "تنتقل الجملة من الدلالة على معناها الأصل (س) إلى معنى آخر (ص)، بالانتقال خرقا من أحد شروط إجراء (س)، إلى ما يقابله من شروط إجراء (ص)"[1].

إن الباحث في النظرية اللغوية العربية يلاحظ أن القدماء سبقوا إلى ظاهرة الاستلزام الحواري، فلم يغفلوا عن تمثيل المعاني المقامية الثواني التي تخرج عن أصل الوضع، وتتولد من امتناع إجراء الكلام على الأصل بدليل قرائن الأحوال، وهي التي يدعوها النحوي المشهور، ومؤسسي أصول البلاغة أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) بمعنى المعنى، يقول: " . . . وهي أن تقول المعنى، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[2].

هذه باختصار شديد لمحة من المقاربات اللغوية لدلالة الخطاب كما تمثلها منظروها الأوائل في الفكر الفلسفي اللغوي، وهي تصدر عن منزع وظيفي تداولي يعالج قوة الوحدات اللغوية العملية، ويُعنى بجميع أشكال التعامل القولي، ولا يغادر منها أحد، فحتى ما كان منها مبتذلا صار معتمدا، على خلاف ما ترسخ في التقاليد من تعلق بالأقوال الجازمة دون سواها[3]؛ ولكي يحصل هذا الاتصال لا بد من وجود عناصر التداولية.

1. 2. القدرة التواصلية وركائز نجاحها.

[1] أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1، 1986، ص 102.

[2] الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن): دلائل الإعجاز، تحقيق سعد كريم الفقي، القاهرة، دار اليقين، ط 1، 2001، ص 177.

[3] جون ليونز: اللغة والمعنى والسياق، ص 213.

ترتكز التداولية على مشاركَين في الخطاب: (المتكلم والمخاطب)؛ وذلك من خلال وسيلة لنقل الحوار تكون مكتوبة أو منطوقة[1]، يهدف من خلالها تحقيق هدف المتكلم من خطابه، معتمدًا مخزونَهُ المعلوماتي، فضلا عمَّا يفترضه من معلومات سابقة في ذهن المخاطب، والذي طبقا لها تتفاوت طبيعة الحوار في درجات الإفصاح والإحالة، يقول كارل بونتنج: "إن شركاء الاتصال يستطيعون أن يرجعوا إلى مخزون مشترك من وسائل الاتصال، ويمكنهم بواسطتها أن يتناقلوا الأخبار"[2].

لا شك في أن عنصري المتكلم والمخاطب يمثلان الركيزة الأساس في علم التداولية؛ فحضورهما يشكل اللغة بمعناها التواصلي[3]؛ لكون الخطاب يمثل علاقة متبادلة بين المتخاطبَين؛ ومن ثَمَّ توجد عوامل، وظروف مساعدة لا بدَّ من استحضارها؛ ليتحقق مقصد المتكلم من رسالته، وليفهم المخاطَب مضمون هذه الرسالة لا بدَّ من توافر مجموعة من الركائز يقوم عليها نجاح الحدث اللغوي حيث يحقق وظيفته النفعية، والإبلاغية بحصول جملة من الركائز[4]من بينها المواضعة.

تتحقق المواضعة بأن يتسالم المرسِل والمتلقي على دلالة معينة للعلامة اللغوية[5]؛ لأن اللغة عبارة عن نظام من الرموز الصوتية، تكمن قيمة كل رمز في

---

[1] حميد سمير: النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 16.

[2] كارل بونتنج: المدخل إلى علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة، مؤسسة المختار، ط 2، 2006، ص 52.

[3] أحمد علي محمد: جَدَلُ الخطاب والمعنى، مجلة الموقف الأدبي، العدد الثامن والتسعون بعد المائة الثالثة، حزيران 2004، ص 4.

[4] يقوم نجاح الحدث اللغوي على حصول الركائز الآتية: المواضعة، القصد، البيان الواضح، عدم اللبس، مستوى الاستعمال.

[5] لا يعني هذا أنه لا بد من أن يقوما بعقد جلسة بينهما للتوافق والاصطلاح، بل إن المرسِل قادر على إيصال الدلالة المطلوبة إلى متلقيه عن طريق وضع العنصر اللغوي في سياق يكشف عن حقيقته ومدلوله، فيسهل الفهم على المتلقي عن طريق قرينة السياق، ويرى كارل بونتنج (المدخل إلى علم اللغة، 2006، ص 52) أن شركاء الاتصال يستطيعون أن يرجعوا إلى مخزون مشترك من وسائل الاتصال ويمكنهم بواسطتها أن يتناقلوا الأخبار.

الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به، والاتفاق في الشفرة اللغوية شرط لنجاح التفاعل[1]، وهذا يؤكد رؤية سوسير (Saussure) أن اللغة لا توجد إلَّا بمقتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة[2]؛ لأن التحدث بأسلوب لا يتناسب ومستوى المستقبل الثقافي أو الاجتماعي من أسباب فشل الرسالة[3].

إن كلام الإنسان مرهون بالجماعة التي يخاطبها، لذلك كان مرغما على أن يختار مما اصطلحت عليه تلك الجماعة، وإلَّا فإن رسالته سترفضها سلطة هذه الجماعة، لهذا يجب مراعاة جملة الظروف الحافة بالنص، يقول هاليداي (Halliday): "إن الكلام المنطوق يحتاج إلى شكل مرن، وليس إلى بناء جامد من التمثيل الشكلي"[4].

مما لا ريب فيه أن للكلمة في لغتنا العربية أثرا نافذا في نفوسنا، ولهذا فإننا نتخير أحسن الألفاظ التي تختزن في ذاكرتنا بحيث تكون أكثر مناسبة بالموازنة مع غيرها من الألفاظ؛ لتكون موافقةً الحال الذي نتحدث فيها؛ لذا من الضرورة أن يعرف المتكلم أقدار المخاطبين عند الحديث؛ ليحقق نجاح رسالته، وذلك بالنظر في حالتهم الثقافية والاجتماعية، فيخاطبهم على قدر فهمهم، فقد جاء الشرع الإلهي الرباني بهذا

---

[1] حسام فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، القاهرة، مكتبة الآداب، ط 1، 2007، ص 14.

[2] دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1985، ص 35.

[3] محمد الظفيري: فن الاتصال اللغوي ووسائل تنميته، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط 1، 2006، ص 51 .

[4] يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، الكويت، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989 ص 73 .

المبدأ[1]. يقول أبو هلال العسكري (ت 395هـ):"إن الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف، وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا"[2].

إن مبدأ مراعاة أقدار المخاطبين من المبادئ السامية التي ذكرت في التربية النبوية، فقد عَرَّفَ النبي (ﷺ) معاذا –رضي الله عنه– على حالة أهل اليمن، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: "أن رسول الله قال: لَمَّا بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: إنّكَ تَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ ..."[3].

روى الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا:" قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: خَاطِبُوا النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ"[4]، وقد روى الإمام أبو عبد الله البخاري (ت 256 هـ) – طيب الله ثراه، وعطَّره بعبير الجنان – في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأرضاه: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟"[5].

---

[1] أمرنا الله أن نخاطب الناس على قدر عقولهم؛ مراعاة للحكمة والموعظة الحسنة المقصودة في قوله: ﴿وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾(سورة البقرة:83)، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: 125). وقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(سورة الإسراء:53).

[2] أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص 193 .

[3] البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل): الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق وتعليق مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط3، 1987، الحديث رقم 1425، ج 2 ص 544.

[4] إسماعيل العجلوني: كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط3، 1983، الحديث رقم 592، ج 1 ص 196 .

[5] الإمام البخاري: صحيح البخاري، الحديث رقم 127، ج 1 ص 59 .

روى الإمام أبو الحسين مسلم (ت 261 هـ) –طيب الله روحه، وطهَّر سره– في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قَالَ: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً"[1].

قال البغدادي (ت 463 هـ) نقلا عن وهب بن منبه:"ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يحدث كل قوم بما تحتمله عقولهم، وقلوبهم من العلم"[2].

في هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في إحياء علوم الدين:" كِلْ لكل عبد بمعيار عقله – بقدر عقله – وَزِنْ له بميزان فهمه؛ حتى تسلم منه –من قوله، أو إنكاره– وحتى ينتفع بك، وإلا وقع الإنكار؛ لتفاوت المعيار، وكم من إنسان خُطِّئ وبدِّع، وربما ضُلِّلَ وهو على حق؟ لكن لأنه تكلم بهذا الكلام في وسط قوم لا تسع عقولهم ما قال، أو أن هذا الكلام بُلِّغ إليهم من غير طريقه، فخطَّؤوه وهم المخطئون، وضللوه وهم الضالون"[3].

إن تجاهل الأخذ بهذا المبدأ قد يؤدي إلى ضرر يربو على المصلحة المقصودة من التكلم، والمترتبة عليه، يقول شيشيرون (Ciceron): "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل

[1] الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري): الجامع الصحيح المسمى (صحيح مسلم)، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة، د. ت، د . ت، الحديث رقم 14، ج 1 ص 9 .

[2] الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، ط 1، 1983، ج 2 ص 109.

[3] أبو حامد الغزالي (محمد بن محمد الغزالي): إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1983، ج 1 ص 57 .

شيء، ولا لصالح أي شيء، عليه – إذن – لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له"[1].

يقول العالم اللغوي ديل هايمز (Dill Hymes) مشيرا إلى هذا المبدأ: "لكي تتواصل مع الآخرين لا يكفيك أن تعرف اللغة ونظامها، بل أن تعرف أيضا كيف تستعملها في سياقها الاجتماعي"[2]، فعرَّف هايمز الكفاءة التواصلية بأنها قدرة الفرد على استعمال اللغة في سياق تواصلي لأداء أغراض تواصلية معيّنة، فالكفاءة التواصلية تعني على هذا الأساس قدرة الفرد على تبليغ أغراضه، بواسطة عبارات متعارف عليها، و تعني – أيضا – مدى وعي الفرد بالقواعد الحاكمة للاستعمال المناسب في موقف اجتماعي، وتشتمل على مفهومين أساسيين هما المناسبة والفعالية، وهذان المفهومان يتحققان في كل من اللغة المنطوقة والمكتوبة.

أثبتت المدرسة اللغوية العربية –هذا أمر– ففي هذا السياق يقول أبو الفرج الأصفهاني (ت 356 ه): "حدثنا أحمد بن خلاد قال حدثني أبي قال قلت لبَشّار بن بُرد (ت 167ه): إنَّكَ لَتَجيءُ بالشيء الهجين المتفاوت. قَالَ بشّار: وما ذاك؟

قَالَ: بينما تثير النقعَ، وتخْلَعُ القلوبَ بقولك:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْس أَوْ تُمْطِرَ الدَّمَا
إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّداً مِنْ قَبِيلةٍ ذُرَا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسلَّمَا

نَراكَ تَقُولُ:

رَبَابَةُ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ في الزَّيْتِ
لَها عَشْرُ دَجَاجَـاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّـوْتِ

[1]- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1، القاهرة، الشركة المصرية العالمية، وبيروت، مكتبة لبنان، ط 1، 1996، ص ص 25 – 26.

[2]- رابح بو معزة:تيسير تعليمية النحو (رؤية في أساليب تطوير العملية التعليمية من منظور النظرية اللغوية)، القاهرة، عالم الكتب، ط 1، 2009، ص 44.

فَقَالَ بشّار: لكلِّ وَجْهٌ وَموضع، فالقولُ الأوّل جِدٌّ، والثاني قُلْتُه في (رَبَابَةَ) جاريتي، وَأنَا لا آكُل البيض من السّوق. و(رَبَابَةُ) لها عشْرُ دَجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا القول عندها أحْسَنُ من (قِفَا نَبْكِ منْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ) عندك"[1].

إنّ علماء اللغة قديما وحديثا أدركوا هذا المبدأ، بل إن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام مطروحة في الفكر الإنساني منذ الفيلسوف اليوناني أفلاطون (Plato) (ت 347 ق. م)، وتلميذه أرسطو (Aristotle) (ت 322 ق. م)، فقد تحدث أفلاطون في كتابه (فيدروس) عن مراعاة مقتضى الحال في الخطابة[2]، وكذلك عرض أرسطو في كتابه (فن الشعر) موضوع مقتضى الحال[3]، وأشار إلى أن الفكرة هي إيجاد اللغة التي يقتضيها الموقف، ويتلاءم وإياه، ولم يغفل علماء العربية هذا المبدأ، فأدركوه وأوجبوا مطابقة الكلام حال السامعين، وضرورة مراعاة المواطن التي يقال فيها، فالقول عندهم لا يكون بليغاً كيفما كانت صورته حتى يلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي أُلقي عليه، لذا جعل عبد الرحمن الميداني مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب به أول عناصر أركان الكلام البليغ، لتحقيق الكمال والجمال الأدبي، فهو يرى أنه لا بُدَّ أوّلاً من توافر الأركان الأساس للكلام البليغ، وهي:[4]

---

[1]- أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد): الأغاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط 1، د ت، ج 3 ص 156، لمزيد من التفاصيل ينظر: ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن علي بن رشيق): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ط 5، 1981، ج 1 ص 38.

[2]- حلمي خليل: الكلمة (دراسة لغوية و معجمية)، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 1980، ص 212.

[3]- المرجع السابق، ص 212.

[4]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق، دار القلم، ط 1، 1996، ص 17.

1- مطابقته لمقتضى حال المخاطب به.

2- التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

3- خلُوّه من التعقيد اللّفظي، والتعقيد المعنوي.

كان هذا المبدأ عند علماء العربية من أبرز الملامح في النظر البلاغي، فقد قامت بلاغتهم على اشتراط (موافقة الكلام مقتضى الحال)، واستشعار المقولة السائدة (لكل مقام مقال)[1]، ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق، ولا سيما سياق الحال، وهي حال المتكلم والمخاطب، وسائر ما يأتلف منه المقام، ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام، وتأليفه على هيئات في القول، تتنوع وفقا لتنوع المقامات، لأجل هذا المبدأ (لكل مقام مقال) تجد رؤبة بن العجاج (ت 145 هـ): يَصِفُ نِسَاءً جمَعْنَ العَفَافَ عند الغُرَبَاء، والإِعْرَابَ عَنْدَ الأَزْوَاجِ، وهو ما يُسْتَفْحَشُ من أَلْفَاظ النِّكَاح والجِمَاعِ، فقال: والعُربُ في عَفافةٍ وإعرابِ[2].

قوله: (العُربُ) يعني المتحببات إلى الأزواج، واحدتها عَروب، و(الإعراب) ما يُسْتَفْحَشُ من أَلْفَاظ النِّكَاح والجِمَاعِ، فمعناه أن يقول: إنهن يجمعن العفافة عند الغرباء والإعراب عند الأزواج وهذا كقول العرب: خَيْرُ النِّسَاءِ المُتَبَذِّلة لزَوْجِهَا، الخَفِرَة في قَوْمِهَا، ومن هذا الباب قول الفرزدق (ت110 هـ) في قصيدته (إنَّ الشَّبَابَ لَرَابِحٌ):

يَأنَسْنَ عِندَ بُعُولِهِنّ إذا التَقَوْا، وَإذا هُمُ بَرَزُوا فَهُنّ خِفَارُ

---

[1] أول من قال: (لكل مقام مقال) طرفة بن العبد في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند:

تصدَّق عليَّ هَدَاكَ الْمَلِيكُ فإنّ لكلِّ مقامٍ مقالاً

ينظر: المُفضّل الضبي: الفاخر في الأمثال، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1960، المثل رقم 504، ص 92.

[2] ينظر: أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، مادة: (ع، ر، ب)، وابن منظور: لسان العرب، مادة: (ع، ر، ب)، والزبيدي: تاج العروس، مادة (ع، ر، ب).

يؤكد الفرزدق (ت110 هـ) ما يحب من النساء الشريفات، اللواتي يأنس عند أزواجهن، ويحتفظن بحيائهن بين أيديهم، ويثني على حديثهن المهموس فيقول (من القصيدة نفسها):

شُمُسٌ إِذَا بَلغ الحَديثُ حَيَاءَهُ؛ وَأَوَانِسٌ بِكَرِيمَةٍ أغْرَارُ
وَكَلامُهُنّ كَأنّمَا مَرْفُوعُهُ بحَديثِهِنّ، إذا التَقَيْنَ، سِرَارُ

لقد وقع البلاغيون العرب على عبارتين من جوامع الكلم حين قرروا مبدأ (لكل مقام مقال)، و(لكل كلمة مع صاحبتها مقام)، فهما عبارتان تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء، ولم يكن العالم مالينوفسكي (Malinowski) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (context of situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة، أو ما فوقها[1].

يعد أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) من السابقين في هذا المجال، يقول: "لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإنَّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي"[2].

فمنع أبو عثمان الجاحظ أن يستعمل الخطيبُ – إذا كان متكلّماً – ألفاظَ المتكلّمين إذا عَبَّرَ عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا؛ لأن مثل هذا جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام، وأحسن الذي قال: لكل مقام

[1]- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة، عالم الكتب، ط 5، 2006، ص 372 .

[2]- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، ط 1، 1968، ج 1 ص 90 .

مقال، وربما غلب سوء الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة[1].

من هذا المبدأ استمد بعضهم تعريف البلاغة، فقالوا: هي مطابقة الكلام مقتضى الحال، فمدار شرف الصواب، وإحراز المنفعة كامن في استطاعة المتكلم البليغ التام من مخاطبة العامة بألفاظهم، ومخاطبة الخاصة بمعانيهم وألفاظهم، فغدا التناسب بين المعاني والمستمعين مدار القول في البلاغة الخطابية، فلا بدَّ لإنجاح الحدث الكلامي وتحقيق البلاغة الخطابية من الملاءمة بين المعنى والمستمعين، فلكل طبقة كلام، ولكل حالة مقام.

إن ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول هو بمطابقته الاعتبار المناسب، وانحطاطه: بعدم مطابقته إياه، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا –تطبيق الكلام على مقتضى الحال– هو الذي يسميه الجرجاني (ت 471 هـ) بالنظم؛ حيث يقول: "النظم تأخِّي معاني النحو فيما بين الكَلِم بحسب الأغراض التي يُصاغ لها الكلام"[2].

أشار السكاكي (ت 626 هـ) إلى مبدأ (لكل مقام مقال):" لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوته، ...، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[3]، وقال القرطاجني (ت 684 هـ): "شرط البلاغة والفصاحة حسن الموقع من نفوس الجمهور"[4].

---

[1]– أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص 27 .

[2]– الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 55 .

[3]– السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد): مفتاح العلوم، حققه وقدم له وفهرسه عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 2011، ص 256 .

[4]– حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخواجة، تونس، دار الكتب الشرقية، 1966، ص 25 .

وما أَلطف ما نقله أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) من بلاغة أهل الهند في هذا المضمار، يقول الجاحظ: "سأل أبو الأشعث بهلةَ الهندي: ما البلاغة فيكم؟ فأخرجَ إليَّ صحيفةً كانت ترجمتُها: أوَّلُ البلاغةِ اجتماعُ آلةِ البلاغةِ، وذلكَ أن يكونَ الخطيبُ رابِطَ الجأْشِ، ساكِنَ الجوارحِ، قليلَ اللفْظِ، مُتَخَيراً للفظِ، لا يُكلِّم سَيدَ الأمّة بكلامِ الأمةِ، ولا الملوكَ بكلامِ السوقةِ، ويكون في قوَاه فَضْلٌ للتَصرُّف في كلِّ طبقةٍ، ولا يُدَقِّق المعانيَ كلَّ التدقيقِ، ولا يُنَقِّح كلّ التنقيحِ، ولا يُصفِّيها كلَّ التَصْفِية ولا يُهذِّبها غايةَ التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يُصادِفَ حكيماً أو فيلسوفا عليما"[1].

لذا اشترط الأسلوبيون على الكاتب –حتى يستطيع توصيل ما يجول في فكره إلى المتلقي– ضرورة تحقيق ما يعرف في الدرس الحديث بالكفاءة التبليغية التواصلية، وهي "القدرة على استعمال اللغة في مختلف الأحوال الخطابية والأغراض"[2]، حيث تهتم الكفاءة التواصلية بالصحة اللغوية، وهي تهتم بالموازاة بملاءمة السياق، لأن القدرة على استعمال اللغة لا تنحصر في استعمال القواعد اللغوية والصرفية والدلالية، بل يتعداها إلى معرفة القواعد التداولية، التي تمكّن مستعمل اللغة من فهم وإنتاج خطابات سليمة، في مواقف بعينها؛ لأن هذه الكفاءة التبليغية تؤخذ من وسائط عدة معرفية، ونفسية، واجتماعية، وثقافية، بناء على البنية الاجتماعية التي يعيش فيها المتكلم، ومن ثم تساعد هذا المتكلم على تنويع صور الخطاب بما يلائم المقام، ويعبر عن الأغراض المختلفة[3].

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ص ص 79 – 80 .

[2]- عبد الرحمن الحاج صالح: الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ندوة تعليم اللغة العربية، 1984، ص 10 .

[3]- رابح بو معزة: تيسير تعليمية النحو، ص ص 38– 39 .

لهذا لا بدَّ من احترام سلطة المتلقي، ومراعاة مستواه الثقافي، قال (ﷺ):"إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّى أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّى مَسَاوِيكُمْ أَخْلاَقًا، الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ"[1].

من أجل هذا الخرق عاب أبو الفرج ابن الجوزي على بعض النحاة الذين يكلمون العامة بالإعراب، وعدَّ هذا من الغفلة؛ لأنه لا ينبغي أن يكلم كل قوم إلا بما يفهمون[2]. فالمتلقي العربي والمتقن لغته يفهم قولك: (أكلتُ الأموالَ)؛ لأنَّه يستسيغ هذا التضام الحاصل بين (يأكل وأموال)، لوروده في آيات قرآنية مباركة، كقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾(البقرة: 188)، بينما يرفضه مَن لا يتقن العربيةَ، فينظر إليه بعين الاستغراب، فالمتلقي الإنجليزي – مثلا – قد يجعل المعنى على تقدير: (اغتصاب الملكية = usurp property) [3].

يقول البنداق:"جعلت اللجنة العلمية كلمة (فروجهن) في قوله تعالى:﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوْجَهُنَّ﴾، بمعنى: يَحْفَظْنَ أَجْزَاءَهُنَّ الْخَاصَّةَ، حيث ترجمت إلى: (Their private parts)، وقد جعلت هذه عبارة؛ أي: (Their private parts) كناية عن الفروج باللغة الإنجليزية كما جاء في معجم أكسفورد"[4].

---

[1] الثرثار: الكثير الكلام تكلفًا. والمتشدق: هو المتكلم بملء شدقيه؛ تفاصحاً، وتعظيمًا لكلامه. والمتفيهق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء وهو بمعنى المتشدق؛ لأنه الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه إظهارًا لفصاحته، وفضله، واستعلاءً على غيره، ولهذا فسره رسول الله (ﷺ) بالمتكبر.

[2] ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد): أخبار الحمقى والمغفلين، بيروت، المكتب التجاري، ط 1، د. ت، ص 125 .

[3] الحميدان، ومحمود عبد الله الحميدان، وعبد الجواد محمود: بعض المحاذير اللغوية الواجب مراعاتها عند ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم (تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل)، المنعقدة في 23 – 24 / 4 / 2002، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص 12.

[4] محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، عرض موجز بالمستندات لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم مع نماذج لترجمة تفسير معاني الفاتحة في ست وثلاثين لغة شرقية وغربية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2، 1983، ص 125 .

إن فلسفة احترام سلطة المتلقي، ومراعاة مستواه الثقافي أمر لا بد منه لإنجاح الرسالة، يقول شوقي ضيف عن علاقة الأديب بالمجتمع:" الذي لا شك فيه أن الأديب لا يكتب أدبه لنفسه، وإنما يكتبه لمجتمعه. وكل ما يقال عن فرديته المطلقة غير صحيح، فإنه بمجرد أن يمسك بالقلم يفكر فيمن سيقرؤونه، ويحاول جاهداً أن يتطابق معهم، ويعيَ مجتمعهم وعياً كاملاً بكل قضاياه، وأحداثه، ومشاكله لسبب بسيط؛ وهو أنه اجتماعي بطبعه، ومن ثَمَّ كانت مطالبته أن يكون اجتماعياً في أدبه مطالبةً طبيعيةً"[1].

كما يراعي المتكلم المخاطب في حديثه، يجب على المخاطب ألَّا يلغيَ طبيعة المتحدث التكوينية؛ فاللغوي شأنه شأن أي كاتب آخر، لا ينسلخ من آثار خلفيته الثقافية، ومعتقداته الدينية، واتجاهاته الفكرية[2]، لهذا يجب على المتكلم والمتلقي أن يهتما بما هو أكثر من السياق المصاحب النصوص، فمن الضروري أن نهتم بالسياق الثقافي[3] الذي يلزم مراعاة الخلفية الثقافية الكامنة في عقل المشتركين، ونوع النشاط الذي يمارسونه.

إن المتلقي الفرنسي – مثلا– يستأنس بعبارة: (Elle est belle comme le soleil)، بينما يرفض عبارة: (Elle est belle comme la lune)؛ لأنَّ الجمال عنده مرتبط بالشمس لا بالقمر، وهذا يؤكد أن ثقافة المتلقي تتحكم في تكوين الرسالة.

---

[1]- شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، بمصر، د. ط، د. ت، ص 191 .

[2]- أحمد أبو زيد: مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، الرباط، دار الأمان، د. ط، 1989م، ص 15، وأحمد عبد السلام: التحليل النحوي العقدي (بحث في أثر المعتقدات في الدرس اللغوي)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، العدد (الثاني عشر)، 1997– 1998، ص 136.

[3]- يفرض السياق الثقافي على مستخدمي اللغة تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فقولك:(looking glass) يعد في بريطانيا علامة على الطبقة الاجتماعية العليا بالنسبة لـ(mirror)، وكذلك كلمة (rich) بالنسبة لـ(wealthy)، وكلمة (عقيلته) تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة لـ(زوجته) مثلا. (أحمد مختار عمر: علم الدلالة، الكويت، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط 1، 1982، 1992، ص 71، وحسام فرج: نظرية علم النص، ص 24) .

إن اللغويين العرب أدركوا بثاقب بصرهم، وبعد تأملهم ما أدركته التداولية – في العصر الحديث – من أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها، يقول العتابي معرضاً بالعجم: "اللغة لنا والمعاني لهم"[1]، فاللغة تتضمن حكماً المعاني التي تعبر عنها، والهدف من هذا القول أن اقتصار الأعاجم على المعاني إنما هو إشارة إلى أن اللغات الأخرى لا يمتلك فصاحة التعبير اللغوي الذي يمتلكه العربي، فالمعاني مطروحة على الطريق[2]، على رأي الجاحظ (ت 255 هـ) [3]، إنما العبقرية في الأسلوب اللغوي المتبع.

على نهج الجاحظ وتحت رايته سار أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) في مفاضلته اللفظ على المعنى، يقول: "وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[4].

إن للكلمة في اللغة العربية دورا نافذا في نفوسنا؛ ولهذا فإننا نتخير أحسن الألفاظ التي تختزل في ذاكرتنا, بحيث تكون أكثرَ مناسبةً بالمقارنة مع غيرها من

---

[1]- ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب): كتاب بغداد، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 3، 2002، ص 87 .

[2]- إن قضية المفاضلة بين اللفظ والمعنى حديثها يطول، ومسألتها مفصلة، وشروحها واسعة، وليس ثمة مكانه، ولا وقت عرض المفاضلة، لكن حسبنا هنا في هذه الجزئية ترجيح كفة الجاحظ، بامتلاك العربي القدرة على التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ كثيرة .

[3]- الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، د. ط، 1996، ج 3، ص 444.

[4]- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص 64.

الألفاظ لتكونَ هذه الألفاظ موافقةً الحالَ الذي نتحدث فيها " لكل فئة خصائص صوتية، ومفردات، وتعابير، تميزها عن غيرها من الفئات الأخرى"[1].

فقد كَرِه رسول الله (ﷺ) لفظ (الخُبْث)؛ لبشاعته، جاء في الصحيحين من حديث سَهْلِ بن حُنَيْفٍ "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي"[2]، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه تعليما للأدب في المنطق، وإرشادا إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح من الأقوال، وقد فطن إلى هذا البلاغيون العرب، فجعلوا لكل مقام مقالا[3]، لهذا ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني فيوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وأقدار الحالات فيجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى يقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات، يقول الجاحظ: "وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات"[4]؛ لأن الحدث اللغوي تفاعل بين المتكلم والمستمع، فهو لا يخضع لرغبة المتكلم فقط، بل يراعي خصوصية المستمع ووضعهما الاجتماعي والفكري[5].

أحاط الجاحظ (ت 255 هـ) بأبعاد هذه النظرية[6]، حين ألزم بضرورة انتقاء الألفاظ عند الحديث دون ألفاظ؛ لسبب أو لآخر، وهذا القول منه هو ما يُعْرَفُ في الدرس اللغوي بالمحظور اللغوية، فهو صورة صادقة من احترام العربية طبيعةَ المجتمعِ، والتي لا يتحصل عليها إلا ذو حظ وافر في العربية، وقد كان للقرآن فيه

---

[1]- محيي الدين محسب: الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي، مجلة علوم اللغة، القاهرة، دار غريب، العدد الثاني، 1998، ص 64.

[2]- الحميدي (محمد بن فتوح): الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق علي حسين البواب، بيروت، دار ابن حزم، ط 2، 2002، ج 1 ص267.

[3]- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 337، وفرحان اليحيى: اللغة الوظيفية والدلالة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد السادس والأربعون بعد المائة الرابعة، حزيران 2008، ص 8.

[4]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ص 90.

[5]- حسام فرج: نظرية علم النص، ص 48.

[6]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ص 90.

القدح المعلى، والشرف الأعلى، قال محمود صافي (ت 1376هـ – 1957م): "الحق الذي لا مراء فيه أن اختيار اللفظة ووضعها في موضعها حسب المقام ومقتضى الحال تلك موهبة لا تنال بالمراس وحده وملكة لا يؤتاها ألا القليل من الناس. لا سيما وأنت أمام لغة كثرت مفرداتها المترادفة ولكل منها مقام يحدده الذوق وملكة أدبية لا تخضع لقياس. ولا توزن بميزان ولعل كثرة الاطلاع وتعهد النماذج الأدبية الرفيعة بالقراءة، وكثرة المداولة مما ينمي هذه الملكة ويهذبها حتى تكتمل أو تدنو من الكمال. وهي في القرآن الكريم في أعلى مرتبة من حسن الانتقاء وملكة الاختيار"[1].

الباب الثاني: دراسة المحظور اللغوي.

[1]- محمود بن عبد الرحيم صافي: الجدول في إعراب القرآن، دمشق، دار الرشيد مؤسسة الإيمان ط 4، 1997، ج 20 ص 268 – 269.

(لكل مقام مقال) نظرية أسلوبية راقية البلاغة، لخص فيها علماؤنا ما عُرِفَ في الدرس اللغوي بالمحظور اللغوي، أو اللامساس، فأدركوا بحسهم العربي المرهف، وطبعهم الأسلوبي الراقي، وذوقهم البلاغي العالي، أهمية انتقاء الألفاظ عند الحديث دون ألفاظ؛ لسبب أو لآخر، وضرورة مراعاة أحوال اللفظ العربي التي تطابق مقتضى الحال. فاشترطوا هذا الملحظ في الحديث كعلامة لمراعاة المتكلم أقدار المعاني فيوازنوا بينها وبين أوزان المستمعين، هذا ملخص الباب الأول.

إنَّ اللغة منظومة متكاملة من المستويات اللغوية، وهذه المستويات هي المستوي الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي (الدلالات المعجمية)، ويدخل الحظْر اللغوي عناصر هذه المكونات جميعا دون استثناء، فاللغة مرآة ينعكس فيها كلُّ ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة والخاصة، لذا أصبحت مستويات اللغة مجالاتٍ للحظرِ داخلَ المنظومة اللغوية، لكل مجال خصوصيته في الحظر، مع الإقرار بوجود منطقة أعراف تتبادل المجالات فيها التأثير والتأثر.

يسعى البحث –في الوريقات القادمة– إلى دراسة ظاهرة المحظورات اللغوية في المستوى المعجمي في العربية، وبيان فلسفة الحظْر في اللغة، وأهم الأسباب الجالبة له ضمن منظومة العربية اللغوية، والداعية لحضوره في التركيب اللغوي، مع محاولة عرض جملة من الوسائل التي تعمل (قدر الإمكان) على تقليل جريانه على اللسان، أو التخلص منه في التركيب اللغوي. وننهي العمل بدراسة الضرورات التي تبيح المحظورات لنصلَ إلى أنَّ الحظْر حُكْمٌ قد يترخص فيه في جملة من المواطن.

2. 1. دلالة المحظور اللغوي

إن استعمالنا اللغةَ محكومٌ بقواعد، وهذه القواعد نوعان: ما يتعلق بتركيب اللغة نفسها؛ أصواتها وقواعدها، وآخر ما يتعلق بالاستعمال الفعلي، وهذه القواعد الأخيرة

في معظمها قواعد اجتماعية تخضع لسلطة المجتمع والمتعاملين بها، فتأثير المجتمع بمعناه الواسع في اللغة بيِّنٌ، ومن جانب آخر فإن اللغة تتأثر بالمجتمع الواحد والفئات الكائنة داخله؛ مما يفرض على مستخدميها قواعد لا بد أن تراعي عند إنشاء الحدث الكلامي، وهذه القواعد وضعية تختلف في العادة من مجتمع إلى آخر، حتى ولو كان المجتمعان يستعملان اللسان نفسه.

لذا قد تتشعب لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى مستويات لغوية متباينة؛ تبعا لتباين فئات الأفراد الاجتماعية، واختلاف طبقاتهم[1]، فعدد الكلمات الجارحة وطبيعتها يختلفان باختلاف البيئات والعهود[2]، وهذه الخلافات بين الأفراد من أكثر ما يتناول على مائدة النقاش، وهذه ظاهرة عامة في اللغات البشرية.

يقول جون ليونز (John Lyons):"توجد تابوهات كلمات معينة تكشف الانتماء إلى مجموعات معينة في الجماعة، ومنذ سنوات كان الفارق بين مفردات الطبقة الراقية (U – vocabulary)، ومفردات الطبقات الأخرى (non – U vocabulary) موضع حوار يومي في بريطانيا"[3].

إن الفرد الذي يعيش في مجتمع ما؛ يجب أن يتقيدَ بهذه القواعد إذا كان يرغب في أن يبقى عضواً مقبولا في ذلك المجتمع. إن لكل مجتمع طرقه في التفكير، ونظرته الخاصة إلى الحياة، فالحظْر في علوم العربية حظْر بحسب الحالةِ أو البيئة، ففي عُمَان تعد لفظتا: السيد، السيدة من المحظور على المستوى الرسمي، ومثله في العرف الاجتماعي حبيبي، وحبيبتي، فهما من المحظور في حق كثير من الناس، وربما حصرت في الزوج، أو الزوجة، ومثله: صاحبي، صاحبتي.

---

[1]- هادي نهر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، بيروت، دار الغصون، ط 1، 1988، ص 166.

[2]- فندريس (جوزيف): اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، 1950، ص 279 .

[3]- جون ليونز: اللغة وعلم اللغة، لبنان، دار النهضة العربية، ط 1، 1981، ص 211.

من هذا لفظة (العافية) في بعض مناطق المغرب العربي إذ هي في عُرْفِهم اللغوي بمعنى (النار والجحيم)، فلا تُطلق بمعنى الصحة والقدرة كحال المشرق العربي.

مثل هذا اسم الفاعل من الفعل (سقط) حيث يتلازم استخدام هذا الصيغة الصرفية – في عُمَان وبعض دول الخليج – بعد الفشل في تجاوز اختبار، فهو من الصيغ التي تجري كثيرا على اللسان، فيقول: (أنت ساقط)، بينما يعد هذا الفعل في كثير من بلاد المغرب العربي من المحظور حيث يحمل دلالة (دنيء، لئيم).

أمَّا في اللهجة السودانية فتعد لفظة (دَبَّة)[1] من المحظورات اللغوية؛ لدلالتها على عضو التأنيث في المرأة، بينما تشيع اللفظة في عُمَان بمعنى القارورة، وتستخدم أداة لحفظ الزيت أو الماء، قال ابن منظور (ت 711 هـ) في لسان العرب: "والدَّبَّةُ التي يُجْعَل فيها الزَّيْتُ، والبِزْرُ، والدُّهنُ، والجمعُ دِبَابٌ"[2]، قال الزبيدي (ت 1205 هـ) في تاج العروس: "الدَّبَّةُ بالفَتْح: ظَرْفٌ لِلْبَزْرِ، والزَّيْتِ، والدُّهْنِ، والجَمْعُ دِبَابٌ عن سِيبويهِ"[3].

يذكر عبد الواحد وافي أن هناك مجتمعات قد تتصف بصراحة شديدة، يراها مجتمع آخر خشنة جافة، لا تتلاءم وقواعد السلوك العامة، فاللاتينيون – مثلاً – يعبرون عن العورات، والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات صريحة ومكشوفة على حين أنَّ العرب تتلمس أحسنَ الحيلِ، وأدناها إلى الحشمةِ والتأدب في التعبير عن هذه الأمورِ بأسلوبٍ ألطفَ وأحسنَ[4].

---

[1]- تخرج الكلمة من المحظور إذا وجهت نحو معنى (الدبة) المدينة السودانية التي تقع على ضفاف نهر النيل، وتتبع ولاية الشمالية حيث يصلها مع باقي أنحاء العالم مطار الدبة، والذي يحدد دلالة الاستخدام هو السياق.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، مادة: (د، ب، ب).

[3]- الزبيدي: تاج العروس، مادة (د، ب، ب).

[4]- علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، المملكة العربية السعودية، شركات مكتبات عكاظ، ط 4، 1983م، ص 55.

لا شك أنك بين المجتمعَين ستجد بونا واضحا في لغة كلٍّ منهما، فلغة المجتمع الأول تعبر بصراحة مباشرة، عن الأمور المشينة والعورات، والأعمال التي لا ينبغي أن تذكر في عبارات مكشوفة. أما لغة المجتمع الآخر، فتتلمس – دائما – حسن الحيلة وأدب التعبير، مستعملة المجاز في الألفاظ، والكناية بدلا من صريح القول، وكلما شاع معنى لفظ واستهجن، يستعاض عنه بآخر من اللغة نفسها، أو من لغة أجنبية[1].

يقول ستيفن أولمان (Stephen Ullmann):"فإذا ما اصطدت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر أو الأذى"[2].

في ضوء هذه القواعد يتوجب على الفرد أثناء حديثه أو كتاباته تجنب بعض الألفاظ؛ دفعاً للأذى، أو ترفعاً عما يرتبط بتلك الألفاظ من معانٍ غير مقبولة اجتماعيا، أو أنها تخدش الحياء العام، أو تجرح الشعور، يقول جونز لوينز (John Lyons): " لا يستبعد المرء أن يجازف بإقامة الدعوى القانونية إذا ما استخدم فرد كلمة من الكلمات التي يطلق عليها اسم الكلمات ذات الأربعة حروف؛ أي: كلمات تتصل بالجنس"[3].

إن هذا الترفع عن بعض المصطلحات والإتيان بمصطلحات أقل حدة أو أكثر قبولا لدى الناس ما هو إلا صورة من صور احترام سلطة المجتمع المتلقي، وجعل النص مقبولا مترفعا عن سواه، فاللغة مزيج من لفظ ومعنى، فالألفاظ قوالب المعاني، وبها تدرك، ويُفصح عما يكن في النفس، فلما كان الغرض من الكلام التعبيرُ عمّا في الفكر، ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظٍ دالَّةٍ على ما يريد المتكلّم التعبير عنه كان

[1]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1980، ص 142.

[2]- أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، د. ط، 1992م، ص 193.

[3]- جون ليونز: اللغة وعلم اللغة، ص ص 211 – 212 .

من جيّد ما عُرِّفَ به الكلام، قول خالد بن صَفْوان (ت 133 هـ) "خَيْرُ الكلام مَا طَرُفَتْ مَعَانيه، وشَرُفَتْ مَبَانِيه، والْتَذَّه آذان سَامِعِيه"[1].

لما كانت كذلك احتيج إلى العناية بها، عناية أيما عناية، فإن من اللفظ ما هو مستطاب ندي، ومنها ما هو مستقبح بذي، فتستطيب الأسماع ما طاب منه وصلح، وتجرح الآذان بما ساء منه وخبث، فالعاقل من محص ثم نطق، وترفع عن اللفظ المؤذي، وهذا نهج البلغاء، وسبيل الحكماء، والعربية تتميز بالسمو والرفعة عن كثير من اللغات, وتتميز بتنوع الأساليب، ومن بين الأساليب التي تتميز بها هذه اللغة هي أساليب التلطف والتهذيب، وهذا ما تجده فارقا بين كاتبين والحدث واحد، وكتب السابقين مليئة بهذا الضرب، وسنمثل –هنا– بقصة (ابن ألغز) عند أبي الفرج الأصفهاني (ت 356هـ) في كتابه: الأغاني، والزمخشري (ت 538 هـ) في كتابه: المستقصى في أمثال العرب.

قال أبو الفرج:" كان ابن ألغز أُيُرًا، فكان إذا أَنْعَظَ احتكت الفصالُ بِأَيْرِهِ، قال وكان في إياد امرأة تستصغر أُيُوْرَ الرجال، فجامعها ابن ألغز، فقالت: يا معشر إياد، أبالركب تجامعون النساء ؟ فضرب بيده على أليتها، وقال: ما هذا ؟ فقالت وهي لا تعقل: ما تقول ؟! هذا القمر. فضرب العرب بها المثل، أريها استها، وتريني القمر"[2].

أمَّا الزمخشري فيقول: "أَنْكَحُ مِنِ ابْنِ ألْغَزَ، هو عروة بن أشيم الإيادي، كان أوفرهم عضوا، وأنكحهم، يزعمون أنه كان يستلقى مُنْعِظًا فيظنه الفصيلُ الأجرب جذلا؛ فيحتك به، وأنه أصاب جنب عروس زفت إليه، فقالت: أتهددني بالركبة، وأنه كان إذا غشي امرأة غشي عليها لوفور عضوه، فَادَّعَت امرأة أنها تسلم عليه من

[1]– ابن منظور : لسان العرب، مادة: (ط، ر، ف).

[2]– أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج 16 ص 409.

الغشى، فلما افترشها قال لها: أريني السها، فأرته القمر، فقال: أريها السهى وتريني القمر"[1].

تلحظ أن أبا الفرج عرض المسألة مكشوفة، فلم يرتق بألفاظه، وتجد الزمخشري طبق النظرية، فجاء بالحادثة مؤدبة الصورة، ومغلفة الألفاظ، تسمو بالقارئ، ولا تخدش حياءه؛ لهذا يستحسن قول الزمخشري، ويستقبح الآخر، وما ذلك إلا لاستطابته الأسماع، ومراعاته جوانب المتلقي النفسية.

لو استبدل الزمخشري بالعضو لفظة المتاع، لكسا العبارة جمالا، وحلية، وهذا ما امتدح به مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ) الصاغاني، يقول: "ويقال: إنّه كان يَسْتَلقي على قَفاه ثم يُنْعِظُ فيجيءُ الفَصيلُ فَيَحْتَكُّ بذَكَرِه، ولو قال: بمَتَاعِه –كما فَعَلَه الصَّاغانِيّ – كان أَحْسَنَ في الكِناية"[2].

يقول محسن معالي: "قد نما هذا الترفع عن بعض المصطلحات، وتتطور مما أدى للإتيان بمصطلحات وتراكيب وألفاظ تكون أقل حدة، ومن ثم فهي أكثر قبولا لدى الناس، وهو ما أطلق عليه قديما: التلطف، أو الاستحسان، أو ما قد يصطلح عليه بالمحظور اللغوي "[3].

من صور هذا ما روي عن بنت أعرابي –إن صحت الرواية[4]– صرخت صرخةً عظيمةً، فقال لها أبوها: مالكَ؟ قالت: لدغني عقرب. قال لها: أين ؟ قالت:

---

[1]– الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، بيروت، دار الكتب، العلمية، ط 2، 1987، ج 1 ص 399.

[2]– الزبيدي: تاج العروس، مادة (ل، غ، ز).

[3]– محسن محمد معالي: من روائع الكناية في اللغة، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية، ط 1، 2012، ص 7.

[4]– في الإجابة من طول وتفصيل لا يتناسب ومقام الملدوغ، أو من هو يتألم، فموطن الجواب هنا قصر، والبلاغة تلزم الإيجاز لا الإطناب.

في الموضع الذي لا يضع فيه الراقي أنفه. وكانت اللدغة في إحدى سوأتيها، فتنزهت بذكرها عن لفظها[1].

مما استحسن للحجاج (ت 95 هـ) قوله لامرأة عبد الرحمن بن الأشعث: أين مالُ الله الذي جَعلتِهِ (تحت ذيلك)؛ لأنه كره أن يقول: (تحت استك)، كما تقوله العامة، فالحجاج في حديثه معها كنى؛ لئلا يعاب بما عيب به ابن الزبير لما قال لامرأة عبد الله: " أخرجي المال الذي تحت استك"[2].

تأمل شهرة التركيب الإسنادي (تأبط شرا)، وجمالية الصورة البلاغية المصاحبة التركيب المنقول من الجمل الفعلية، إلَّا أن عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – قد كره قول الرجل لصاحبه: ضعه تحت إبطك. وقال: هلاَّ قلتَ: تحت يدك، أو تحت منكبيك! لما فيه من إيذاء لتخيل المتلقي[3].

قال تعالى:﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(طه: 22)، تأمل كمال الرقي، ولطف التعبير القرآني وجماليته، وبراعة التشبيه فيه، وروعته (جَنَاحِكَ)، ولم يقل:(إِبْطِكَ)؛ لما في اللفظة الأخيرة من ثقل في النطق، يصحبه اشمئزاز في استحضار المدلول، فجاء التعبير القرآني بلفظة (جَنَاحِكَ) في غاية السمو والرفعة والاحتراس، يصحبه اختزال في الألفاظ، والتقدير: واضمُمْ يَدك تنضمَّ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ، فحذف من الأول والثاني، وأبقى مقابلَيْهما ليدلا على ذلك إيجازاً واختصاراً، ويظهر الاحتراس في قوله جل شأنه (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)، لتدل النكرة المنفية

---

[1]- الجرجاني (أبو العباس أحمد بن محمد): المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، بيروت، دار الكتب العلمية: ط 1، 1984م، ص 10.

[2]- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد): رسائل الثعالبي، القاهرة، مطبعة الحلبي، ط 2، 1954، ج 1 ص 60، وابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي): العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين – إبراهيم الإبياري – عبدالسلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، د. ط، ج 2 ص 204 .

[3]- بكر بن عبد الله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ، الدمام، دار ابن الجوزي، ط 1، 1989م، ج 2 ص 16.

على إزالة كل ما هو رديء وقبيح، فأتى بقوله: (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) نفياً لذلك، وقد كنَّى الحق بهذه الكلمة عن قوله (مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ أَو بَهَقٍ)؛ فالطِباعَ تُعَافُه وتنفِرُ منه، ولما في هذه اللفظة من إيذاء المسامع، فجاء النص القرآني طبيبا للإنسان، ممتعا الآذان.

إن هذا التخير في اللفظ، والتلطف في الاستخدام هو ما ميز قول أبي الطيب المتنبي في وصفه الحمى –مع ما فيه من خدش خيال المتلقي– يقول:

وَزائِرَتِي كَأَنَّ بِها حَياءً فَلَيسَ تَزورُ إلاَّ فِي الظَلامِ
بَذَلتُ لَهَا المَطارِفَ وَالحَشَايَا فَعافَتهَا وَباتَت فِي عِظَامي
إِذَا مَا فَارَقَتْنِي غَسَّلَتْنِي كَأَنّا عاكِفَانِ عَلَى حَرامِ

فقد أحسنَ أبو الطيب في هذا البيت وصفا، وأبدعَ صورة، وترفع في تمثيله، فنقل الصورة بما يخدم المشهد، يقول الخفاجي (ت 1069هـ) معلقا: " فأبو الطَّيِّب – في الُحمَّى– قد سَلِمَ من شَناعة ذكر الزِّنى، وما في قُبْح لفظِه من الْخَنَا، فمعناه أَصحُّ؛ لأنه ذكر في هذا الشعر مِن نفسه وزائرته ذكراً وأنثى، جرى بينهما ما يقتضي الغسلَ"[1].

وظَّف نزار قباني اللغة توظيفا ذكيا، مع جرأته في رسم كلماته، والصورة المتخيلة، مع جرأته المبالغ فيها والتي قد توقعه في المحظور، إلا أنه كان –كثيرا– محسنا استخدم تقنيات اللغة، مترفعا بأسلوبه اللغوي الذي يخرجه من الدائرة المبتذلة، فهو أسلوب يجمع قوة اللغة والصورة معا، وهما أقوى ما يميز هذا المنزع الشعري الجمالي عنده، مما قد تتناسى قبح الصورة المرسومة، ويُجَمِّلُها بألفاظه القوية، وبالصور البيانية والبديعية، ومثبتا نظرية الجاحظ (ت 255 هـ) بكون العبرة في الألفاظ، يقول في قصيدة الرسم بالكلمات:[2]

[1]– الشهاب الخفاجي: ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، الطبعة: الأولى، 1967، ص 112.

[2]– نزار قباني: الأعمال الكاملة، مصر، دار صفا، ط 1، 2010، ص 338.

لَا تَطْلُبِي مِنِّي حِسَابَ حَيَاتِي إِنَّ الْحَدِيثَ يَطُولُ يَا مَوْلَاتِي
كُلُّ الْعُصُورِ أَنَا بِهَا .. فَكَأَنَّمَا عُمْرِي مَلَايِينٌ مِنَ السَّنَوَاتِ
تَعِبَتْ مِنَ السَّفَرِ الطَّوِيلِ حَقَائِبِي وَتَعِبْتُ مِنْ خَيْلِي وَمِنْ غَزَوَاتِي
لَمْ يَبْقَ نَهْدٌ أَبْيَضٌ أَوْ أَسْوَدٌ إِلَّا زَرَعْتُ بِأَرْضِهِ رَايَاتِي
لَمْ تَبْقَ زَاوِيَةٌ بِجِسْمِ جَمِيْلَةٍ إِلَّا وَمَرَّتْ فَوْقَهَا عَرَبَاتِي
فَصَّلْتُ مِنْ جِلْدِ النِّسَاءِ عَبَاءَةً وَبَنَيْتُ أَهْرَامًا مِنَ الْحَلَمَاتِ

إن هذا الرسم الذي يخطه نزار مع ما فيه من كسر المحظور، وعرض صورٍ قد يمقتها المجتمعُ، إلا أنه ترفع بها بأسلوبه، وبرسم صوره، وباختيار ألفاظه، وحسن بيانه وبديعه، تأمل وهو يقول: (لَمْ يَبْقَ نَهْدٌ أَبْيَضٌ أَوْ أَسْوَدٌ)، لربما لو استخدم لفظة (لَمْ يَبْقَ صَدْرٌ) عوضا عن (النهد) لكان أكثر قبولا؛ لجريان لفظة (الصدر) على المسامع، ولما فيه من تأدبٍ في الاستعمال الدلالي، فضلا عن الإيحاء الدلالي في لفظة (صدر) الذي يشير إلى الاتساع، والاحتضان، الذي يتناسب وجمع (راية رايات)، وهذا أصدق في توصيف الحالة النفسية، فمن علا الصدر يحتاج إلى سَعةٍ ليوزعَ – زارعًا – راياته، ويُمَكِّنُهُ من مرور عرباتِهِ.

مع جمالية هذه الصورة إلا أن نزارا بقوله: (لَمْ يَبْقَ نَهْدٌ)، يعلو بالصورة المتخيلة، أكثر من الصورة الكامنة في لفظة (صَدْرٌ)، مما يجعلك تقرأ النصَّ متغافلا السلطة، متلذذا بهذا المسرح المشاهد الذي يفتحه أمامك نزار، فقد مَهَّدَ لقوله: (لَمْ يَبْقَ نَهْدٌ أَبْيَضٌ أَوْ أَسْوَدٌ ... إِلَّا زَرَعْتُ بِأَرْضِهِ رَايَاتِي) بقوله: (وَتَعِبْتُ مِنْ خَيْلِي وَمِنْ غَزَوَاتِي)، فاختزل – أولا – الألفاظ التي قد تمثل محظورا، فحذف المشبه في مركبي الجار والمجرور (مِنْ خَيْلِي) (مِنْ غَزَوَاتِي)، فلو صَرَّحَ بهما لحرك ضده السلطة المتلقية، ونَزَلَ بمستواه التعبيري، لذا أظهر هذه الغريزة المحركة له في صورة (خيلي)، وجعل اجتماعه بمن أوصلته إليه خيلُه (غزوة)، وقد أفاد نزار من التضام اللفظي بين

(خيلي، غزوة، رياتي) فهذه الألفاظ بينها تضام، وتوافق دلالي، فالمتلقي يترقب هذه الألفاظ لا يفصل بينها، فاعتمد نزار –بذكائه اللغوي– الصورةَ المختزلةَ في ذاكرة المتلقي؛ ليعرض مشهده، وينشر ثوبه بأسلوبه.

إن الجمالية البديعية المعنوية في لفظة (نهد) –لا تظهر في لفظة صدر– تكمن في انفتاح دلالة (نهد) فهي لها معنيان: الأول والذي يريده نزار الصدر، والجسد الذي يمر عليه بعرباته، والآخر: النهد كل مكان مرتفع، يتوافق هذا والخيل المتعبة، وكلمة أرض التي سيزرع فيها راياته.

ثم ينتقل إلى مشهد آخر (لَمْ تَبْقَ زَاوِيَةٌ بِجِسْمِ جَمِيْلَةٍ ... إِلَّا وَمَرَّتْ فَوْقَهَا عَرَبَاتِي)، تجد الصورة متقبلة، تجعل المتلقي مستسلما، وهو يقرأ الشطر الأول يتمثل القوة فيه، والتي تتناسب وقوله في عجز البيت (مرت فوقها عربات) فنزار ابتعد في بنائه الشطر الأول عن الحروف الرخوة، فجعلها قوية؛ فكأنه جاء بهذه القوة ليدلل على قوله: (وَتَعِبْتُ مِنْ خَيْلِي وَمِنْ غَزَوَاتِي)، ويؤكد (إِلَّا وَمَرَّتْ فَوْقَهَا عَرَبَاتِي).

إن متلقي هذا النص (لَمْ تَبْقَ زَاوِيَةٌ بِجِسْمِ جَمِيْلَةٍ ... إِلَّا وَمَرَّتْ فَوْقَهَا عَرَبَاتِي) يرمي بسلطته، ويقف مرددا، لا يطلب جوازا لمرور النص، ولا يضع حاجز المحظور أمام تدفق هذا النص؛ لربما لأن المتلقي سيتمثل لفظة (زَاوِيَةٌ)، وقد جاءت منونة بالضم مما سيحصره ويبقيه متأملا المشهد، لِيُفِيقَ على نهاية المقطع المخصص بالإضافة (بِجِسْمِ جَمِيْلَةٍ) وبتاء منونة تنوين كسر، ليصنع بها نزار سلطته على المتلقي.

(الباء) في قوله (بجسم) تتأرجح بين الزيادة والأصالة، فإن كانت زائدة فتقدير المعنى: زاوية جسمِ جميلةٍ، ونحو هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾(البقرة: 282)، على أحد تخريجات هذه الآية، فالتقدير على الزيادة: فَلْيكتب بينكم كاتبُ العدلِ.

يجوز في (الباء) كونها أصلية، ويجري فيها قولان: للإلصاقِ؛ أي: زاوية تَلصَقُ بجسمِ جميلةٍ. أو بمعنى (في) الظرفية (لمن يجيز التناوب بين الحروف)، نحو: زيد بالبصرة؛ أي: في البصرة، والتقدير: زاوية في جسم جميلة.

لو لمحت أصل التركيب في بنيته العميقة لوجدته (لَمْ تَبْقَ زَاوِيَةٌ جِسْمِ امرأةٍ جَمِيْلَةٍ) إلا أن الشاعر فكك هذا التركيب؛ لأنه يصارح المتلقي بالأمر، ويجعل الصورة أكثر انكشافا ووضوحا، فالصورة التي أرادها نزار تعطي المتلقي رضا، وارتياحا للصورة التي لا تجعل المتلقي يقف طويلا؛ فنزار جعل لنفسه سلطة فرضها على المتلقي، يحركه بألفاظه وصوره، فالمتلقي في سرحانه في تخيل المشهد المرسوم، سيدخل دائرة الاستثناء، لينقل معه للفعل (مرت فوقها) ويختمها نزار بلفظة (عرباتي)؛ ليعيده إلى المعنى السابق (خيلي، غزواتي).

يختم نزار مقطوعته بكلمات قد تندرج تحت مظلة المحظور اللغوي مع ما يصاحبها من تعبير مجازي تكتنز به لفظة (حلمات)، مما قد يجعلك تتقبل اللفظة مع تحفظ عليها.

إن هذه الرحلة الجمالية في شعرية نزار التي يأخذك فيها، لم تشفع له، ولم تجعله مقبولا عند الجميع؛ لما له من أشعار تمثل صورةً تخرق المحظور، وتنتهك سلطة المجتمع، وقد يتجرأ على الذات الإلهية، من هذا ما جاء في إفتاء اللجنة الدائمة، فقد طُرِح سؤال على فضيلتهم (ما حكم قراءة أو حفظ شعر نزار قباني؟)

فجاءت الفتوى " نزار قباني شاعرٌ معروفٌ ومشهورٌ، لكن ليس كلُّ مشهورٍ ممدوحا، والذي نعرفه عن شعر نزار قباني أنه كان مولعاً بوصف النساء، والناظر في شعره يراه كأنه قصيدةٌ واحدةٌ نُسخت بألفاظٍ ومفرداتٍ متغايرةٍ، ومحورُ هذه القصيدةِ هو النساءُ، وما يدور بينه وبينهن في المخادع، وفي شعر نزار قباني أمثلةٌ كثيرة على وقاحة شعره، وفظاظته، ومن ذلك قوله: (فَصَّلْتُ مِنْ جِلْدِ النِّسَاءِ عَبَاءَةً ... وَبَنَيْتُ أَهْرَامًا مِنَ الْحَلَمَاتِ)، فالنساء عند هذا الشاعر لسن سوى نهودٍ وثقوبٍ، ثم إنه مولعٌ

بوصف النساءِ (الزانيات الساقطات)، وفوق كل هذا فقد تجرأ على الذات الإلهية متبعاً في ذلك منهج الحداثيين، . . .، وهي كلها جرائمُ ترتكبُ يومياً باسمِ الإبداعِ والتنويرِ والتجديدِ، ولذا فإنه لا يجوز لأحد قراءةُ مثلِ هذا الشعرِ، أو المساعدةُ على نشرِهِ أو حفظِهِ"[1].

القول بعمومه مرفوض، لكن نريد فقط – هنا – أن نمثل كيف أن المجتمع قد يمثل سلطة لا بد أن تحترم، فمن تجرأ على هذه السلطة، أو حاول فك محظورها أصبح منبوذا، مذؤما، مَدْحُورًا، وهذا ما وقعت فيه الكاتبة القصصية العمانية بدرية الإسماعلية في مجموعتها القصصية (ملح).

ملح هو عنوان مجموعتها القصصية الأولى صدرت ضمن البرنامج الوطني لدعم الكتاب عبر مؤسسة الانتشار العربي. إن الهجوم الذي شُنَّ على الكاتبة بدرية الإسماعيلية تلون بتلون الكتاب، حتى نقدهم كان يحتاج إلى نقدٍ، لا يعنينا المادة المكتوبة، فهي قد تمثل حقائق منتشرة في أرض الواقع، فلسنا في المدينة المحمدية المدينة الفاضلة، فليس المجتمع –كله– يوسف (عليه السلام)، أو الفاروق عمر رضي الله عنه، أو مريم عليها السلام، أو الطاهرة عائشة أم المؤمنين لكن قراءتنا هذه المجموعة ستسلط الضوء على المحظور اللغوي، واحترام سلطة المجتمع.

إن الهجوم الذي تلقته الأستاذة بدرية الإسماعلية في إنتاجها الأدبي كان نتيجة لتخطيها قضية احترام القيود الاجتماعية، فما أكثر ما أخطأ فهمها المراد من الفن القصصي، وضل عنها رشدها، وخانها علمها، فلم تحترم الكاتبة تكوين المتلقي الثقافية فهما يمثلان سلطة، لها احترامها في إنتاج الأديب الشكل الأدبي الذي يصور إبداعه، كذلك لم تحترم القاصة قضية مهمة وهي قضية المحظور اللغوي في معجمها اللغوي وكتابها، فهي ترسم في مجموعتها القصصية جملة من النساء اللواتي –أظن

[1]– المفتي: مركز الفتوى بالمملكة العربية السعودية بإشراف الدكتور عبدالله الفقيه، رقم الفتوى 38467 (نزار قباني .. شعر انحلال وزندقة)، تاريخ الفتوى: الثاني عشر من شعبان 1424.

أنهن– في أمس الحاجة لـ(الملح) شخصيات تراوغ حول منطقة العبث، ذاك العبث المجاني الذي لا شيء يضبط إيقاعه، فهو منفلت وجامح، والرجال ليس لديهم علاقة ثمينة بشيء كما يبدو من قصص هذه المجموعة، فكل شيء مُتاح على مداه الشاسع، والمتعة هي التي تحدد مسار خططهم، فهي تقول في قصتها (أناناس) التي لم تحترم فيها سلطة المجتمع ومشاعر الناس: " أكملت آخر قطعة أناناس في الطبق، أكمل هو تلاوة آخر حرف في قصيدة لم تكتمل، قبَّل يدها، أزاحَ عن صدرها الساتان، وطبعَ قبلةً، مغموسة في الحنين"[1].

كل هذا العبث يكبر في المدينة لا يُعلن عن نفسه صراحة بل يتوارى خلف أبواب موارية، وإن بدت القشرة الخارجية لمثل هذه المجتمعات تسير وفق قيمها ومبادئها, إلا أنها تخفي تحت قشرتها الرقيقة أكثر مما تبدي. تلك الأشياء التي تبقى سرية بين اثنين. فهي "تحسست مكان القُبلة وشعرت بفراشة تستعد للطيران" بينما هو "تحسس أصابعه وقد علق بها طعم ثدييها، فما كان منه إلا أن أخفى طعمها بالسيجارة الألف".

كلام رخيص، وعلاقات مجانية ترسم العبث الذي يتصادم وسلطة المجتمع، وما جاء في المجموعة كثير، وحسبنا من هذه المجموعة القصصية الإشارة إلى ما جاء في قصتها الثانية عشرة، قصة (ضغط)، فالبقية تخرج في ثوب واحد نُسِجَ بنسيج واحد، مما جاء فيها: (رماها على السرير، خلع ملابسها على عجل)، (الكوندوم)، (السيفون).

تأمل شناعة الصورة، واشمئزاز التخيل (الكوندوم يترنح على سطح الماء)، ركزت الإسماعيلية قدرتها التخيلية، ونسيت ترابط الأحداث، فافتتحت قصتها بقولها: (جاء اتصاله كالعادة تصبحين على خير، وقبلة بعثها عبر الأثير).

[1]- بدرية الإسماعيلية: ملح، مجموعة قصصية، البرنامج الوطني لدعم الكتاب عبر مؤسسة الانتشار العربي، ص 12.

إن هذه البداية تكشف قوة العلاقة بينهما، وامتداد حبال الاتصال، وكونهما قد تعودا على الحديث، فكيف يدخل مستعجلا خائفا، ويخلع الملابس على عجل، ثم يدخل تحت الماء ليترك ما يترك، (ولحظة اللقاء لحظة منتظرة، يُفَرَّغُ لها الوقت).

كيف تكون قد طردت من خمسة أماكن، وتكون خائفة وهي تنتظره، وهي من تقول في قصتها: (عاود اتصاله من جديد، يبدو أن غياب الفتيات، كان كفيلا بأن يجعله يلف شوارع مسقط حتى هذه الساعة المتأخرة، مستعيدا شجاعته للاتصال من جديد ممكن أجي).

الجواب لا شك: ترحيب، لم تذكره الكاتبة، لكن الدليل بوصوله، تقول: (ثوان وقد توسطا الغرفة) إن هذا التوسط يعطي إيحاء بالثقة والاطمئنان، لكن الكاتبة تريد المشهد الدرامي ساخنا، تقول: (كانت رعشة الخوف تقربهما بشكل كبير، ونبضات قلبين تناهت إلى مسامع الجدران، رماها على السرير، خلع ملابسها على عجل، بدأت تكيل الشتائم والصفعات لتصرفه الحيواني، لم تكن قبلاته بعد ذلك قادرة على أيقاف دموعها)

أحداث تسير بلا رابط، فمَن تعود لا يكيل الشتائم بعد انتظار، ولا يبكي، فقد حُدِّدَ موعدُه. ضُعْفٌ ظاهرٌ، ووهن في نسيج مجموعتها القصصية، تقول: (يبدو أن غياب الفتيات، كان كفيلا بأن يجعله يلف شوارع مسقط حتى هذه الساعة المتأخرة) ثم تنشغل بأحداث القصة، لتقول: (كان يشغلها أن تعود إحدى الفتيات، وتضبطها بالجرم الفاضح) كيف تعود والوقت متأخرا، وهم في إجازة نهاية الأسبوع، وقد ذكرت هذا في أول القصة تقول: (الشقة خالية من البنات، فاليوم الخميس، غالبا ما يذهبن لقضاء الإجازة في القرى البعيدة).

لو سلمنا بخوفها من عودة إحدى الطالبات، كيف تطمئن وتترك الدماء تجف على فخذيها، وهي خائفة أن تكشفها طالبة. إن الكاتبة تناست سلطة المجتمع، وراحت

شاردة مع المشهد الدرامي أكثر من المطلوب، فكان حسبها لو قالت: انتظرته فسلمته ما يريد، مستسلمة لم يوقظها إلا المياه تنظف قطرات الدماء التي أجرت دموعها.

إن الحملة النقدية التي قرأت مجموعتها القصصية ليست إلا نتيجة تخطيها المحظور، وكسر قيود المجتمع، وعدم احترام سلطته. للكاتب أن يتناول ما يشاء لا حجر، لكن يجب عليه أن يرقى بألفاظه، ويهتم بالسياق الثقافي الذي يلزمه مراعاة الخلفية الثقافية الكامنة في عقول المشتركين الذين سيتلقون النص.

ليست الإشكالية في نوعية الطرح بل في آلياته، والذكاء اللغوي في استخدام ألفاظه، والرقي بأسلوبه، ومن يجعل المجتمع يفتح عينيه على المسألة، ولا يغلق عنها أذنيه، بل يقف ليعرف الأسباب، ويبحث عن الحلول، فها هي الكاتبة اللبنانية حنان الشيخ توظف في رواية (مسك الغزال)[1] المثلية الجنسية النسائية، وتبين أن هدف هذا التوظيف مقاومة الأعراف المجتمعية الذكورية، والاحتجاج على إهمال الزوج امرأته، وانشغاله في السعي وراء المال والعمل، والتأكيد على دور النساء الفعال، واختلال دور الرجال في المجتمع العربي، استمع – وأنت تقرأ – الرقي في عرض القضية، تقول سهى، وهي تصف ممارستها المثلية الجنسية الأولى: "نور تُقَبِّلُنِي، وما فكرتُ كما في الواقع أنَّ القُبلَ هي بينَ الرجل والمرأة، بل تمنّيت المزيدَ، وكانت نورُ كلما وصلت نقطة في جسدي أيقظتها، وتركتها قلقة"[2].

[1]- تدور الرواية حول (نور المرأة الخليجية التي تعاني من غياب زوجها صالح المسؤول في الدولة لانشغاله بالتجارة في أرجاء العالم. وسهى التي تأتي مع زوجها باسم إلى إحدى دول الخليج هربًا من الحرب في لبنان وسعيًا نحو حياة أفضل. تنشأ علاقة بين نور وسهى، بعد أن تداوم سهى على زيارة نور كي تعلّمها فنون السّباحة. تنجح نور في استمالة معلمتها سهى نحو ممارسة جنسيّة تتطور مع الأيام، رغم توجس سهى في البداية وإنكار كونها مثلية كنساء أخريات، لكنها تؤكد أن مثليتها هذه، في المجتمع الخليجي المنغلق، هي متنفس مؤقت للحرية لأنها تنجذب بطبيعتها للرجال) حنان الشيخ: رواية مسك الغزال، بيروت، دار الآداب، ط 1، 1988م .

[2]- المرجع السابق، ص 47.

عرضت الكاتبة قضيتها بأسلوب أدبي ممتع، ولغة محترمة المتلقيَ، لذا كشفت كثير من الروايات العربية والأعمال الأدبية مثل هذه العلاقات، فجاءت في ثوب حسن يتناسب وطبيعة المجتمع المتلقي، فالكاتبة السورية غادة السمان تعالج في رواية (بيروت 75) [1]المثلية الجنسية الرجالية، تحكي الرواية قصة الشاب فرح الذي يستغله نيشان الثري لتلبية احتياجاته، فيقول له نيشان بوضوح: "هل تعرف الثمن،ثمن الشهرة ؟ هل أنت على استعداد لدفعه؟الطاعة أولا..الطاعة المطلقة لي"[2].

إن كثيرا من القضايا أصبحت الآن تعالج أمام أعين المجتمع، لكن تبقى سلطة المجتمع ثابتة لا تتغير بتغير المسميات، وإن هذه السلطة المفروضة على الفرد المثقف المنتج لا تقف على حد الكلام، بل قد تصل إلى الأفعال لتغدو هذه الأفعال محظورة، وهذا أمر قد شاع في الأدب العربي من استنكار كثير من العادات والحقوق البشرية؛ احتراما لعادات المجتمع، فالرجل في المجتمع الجاهلي كان يعاب لحزنه على وفاة امرأته أو ابنته، فلا يزور قبرها، ولا يحزن عليه، احتراما لسلطة فرضها المجتمع عليه، وقد استمرَّت هذه العادة فهذا الفرزدقُ (ت110 هـ) تَموت امرأتُهُ (حَدْرَاء الشَّيْبَانِيَّة)، ويأبَى أن يزور قبرها، ويقول:

---

[1]- تصوير الرواية استغلال القوي الضعيف، والغني الفقير، لتغدو العلاقة المثلية الجنسية علاقة سيد / فاعل / رجل وعبد حيث تحكي قصة فرح الشاب القروي ذي الصوت العذب الرجولي الذي يذهب إلى بيروت ليحصل على المساعدة من قريبه نيشان، كي ينتشله من الفقر، ويصنع منه مطربًا للرجولة. فيستغل نيشان حاجته إلى المال، ورغبته الشّديدة في الوصول إلى الشّهرة، ليجعله أداة لإشباع رغباته الجنسية في مقابل تحقيق أحلامه، تصف الراوية ردّ فعل فرح على ما سمعه، فقد أحس أن في صوت نيشان شيئًا شرسًا وصارمًا مثل فرقعة السّياط في السّيرك، على أجساد الحيوانات أثناء التّدريب،. يتحول فرح من رجل مكتمل الرّجولة إلى رجل يمارس المثلية مع سيده، ويعاني من حالة نفسية تمنعه من إقامة علاقة مع امرأة، ليغدو رجلا عاجزا جنسيا. وتشير غادة السمان إلى أن فرح يتحول، في علاقته المثلية بنيشان، من شريك غير فاعل إلى حيوان مستعبد من سيده عبر علاقة لا إنسانية، وهذا التحول يكتمل في نهاية الرواية، حينما يعوي فرح مثل كلب مذبوح على الجمهور بدلاً من الغناء، ليُنقل بعدها إلى مستشفى الأمراض العقلية. (غادة السمان: رواية (بيروت 75) بيروت، منشورات غادة السمان، ط 1، 1975).

[2]- المرجع السابق، ص 44.

يقُولُونَ زُرْ حَدْرَاءَ والتُّرْبُ دُونَهَا وَكَيْفَ بِشَيْءٍ وَصْلُهُ قَدْ تَقَطَّعَا
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِزَائِرٍ تُرَابًا عَلَى مَرْمُوسَةٍ عَادَ بَلْقَعَا
وَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ إِذَا المَوْتُ غَالَهُ عَلَى المَرْءِ مِنْ أَخْدَانِهِ مَنْ تَقَنَّعَا
وَأَيْسَرُ رُزْءٍ لامْرِئٍ غَيْرِ عَاجِزٍ رَزِيَّةُ مُرْتَجِّ الرَّوَادِفِ أَفْرَعَا
تَهُزُّ السُّيُوفَ المَشْرِفِيَّات دُونَهُ حِذَارًا عَلَيْهِ أَنْ يَذِلَّ وَيَفْزَعَا
وَلا يَشْهَدُ الهَيْجَا وَلا يَحْضُرُ النَّدَى وَلا يُصْبِحُ الشَّرْبَ المُدَامَ المُشَعْشَعَا

فهي عنده أدنى مِن أن تُزار، لأنَّها لا تُحَارِب، ولا تَحضُر مجالس النِّدْمان، فكان لزاما عليه أن يحترم شعائر المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا جرير (ت110 هـ) – أيضًا – يصرِّح بأن الحياء يمنعه من البُكاء على زوجته، ومن زيارة قبرها، على شدة حبه لها؛ لأنه يعيش وسط مجتمع يفرض عليه هذه الشعائر، مع أنه يبوح بهذه المشاعر، إلا أنه بوحٌ خَجِلٌ، ويقول:

لَوْلا الحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالحَبِيبُ يُزَارُ

وفي العصر العباسي نجد البحتريَّ (ت 284 هـ) يلوم صديقه أبا نَهشل؛ لبُكائِه على ابنتِه التي ماتت، ويقول:

أَتُبَكِّي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالرُّمْـ حِ مُشِيحًا وَلا يَهُزُّ اللِّوَاءَ
قَدْ وَلَدْنَ الأَعْدَاءَ قِدْمًا وَوَرَّثْـ نَ التِّلادَ الأَقَاصِيَ البُعَدَاءَ
وَلَعَمْرِي مَا العَجْزُ عِنْدِيَ إِلاَّ أَنْ تَبِيتَ الرِّجَالُ تَبْكِي النِّسَاءَ

إن مع هذه السلطة والقيود التي يفرضها المجتمع لا يجد المنتسب إلى هذا المجتمع إلا السمع إن أراد البقاء بفاعلية فيه، لهذا كانت اللغة العربية – بما تملكه من مترادفات – من الوسائل المعينة على بقاء الفرد المنتج فاعلا في هذا المجتمع، لهذا تعد اللغة العربية من أغنى اللغات البشرية في الألفاظ، وأرقاها في الاستعمال،

وكفى بها شرفا نزول القرآن بلسانهم، فهي به أفصح اللغات كلها: أصلاً، ومفهوماً، واصطلاحاً، وتقويماً لها بالمقارنة مع سائر اللغات الأخرى في العالم، يقول الزمخشري (ت 538 هـ): "لغة العرب أفصح اللغات، وبلاغتها أتم البلاغات"[1]، وأشار ابن خلدون (ت 808 هـ) مبرزا أهمية اللغة العربية بقوله:" تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات، ...، فكان الكلام العربي لذلك أوجز، وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن"[2].

ليس من العبث اللفظي قوله: "وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني"[3]، وقوله: "ولا يوجد ذلك إلا في لغة العرب"[4]، فلا تجد صعوبة إن أردت تفادي مصطلح، والاتيان بآخر، لأن أمامك خيارات متعددة، حيث تجد للمصطلح الواحد – في تعابيرها – أكثر من لفظ للدلالة عليه، ولا سيما الألفاظ التي تخدش الحياء، أو تجرح الشعور، أو قد تهتك سلطة المجتمع، وقيوده، لهذا تجدهم يكنون عما يستقبح ذكره بلفظة (هَنُ)، وهي كناية عن العورة في الرجل والمرأة، جاء في لسان العرب "(هَنُ) كِناية عن الشَّيء يُسْتَفْحَش"[5].

برزت في ميدان الدلالة الاجتماعية –على أفق المجتمعات الإنسانية المختلفة– ظاهرة لغوية أطلق عليها المحظور اللغوي أو الكلام الحرام، وسماها اللغوي الفرنسي فندريس (Vendryes) في كتابه (اللغة) اسم تحريم المفردات[6].

---

[1] الزمخشري: أساس البلاغة، مادة (ل. غ. و).

[2] ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون): مقدمة، بيروت، دار صادر، ط 1، 2000، ص 556.

[3] المرجع السابق، ص 546.

[4] المرجع السابق، ص 546.

[5] ابن منظور: لسان العرب، مادة: (هـ، ن، و).

[6] فندريس: اللغة، ص 280.

تعرف هذا الظاهرة في اللغة الإنجليزية بـ(Taboo)، وهو؛ أي: (Taboo) مصطلح عرفته اللغات الأوروبية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من اللغة البولونيزية وتعني مقدس، أو ما لا يمس، أو المحظور من الأشياء، والأماكن، والأفعال، والكلمات[1]. يقول ستيفن أولمان (Stephen Ullmann):"يشير مصطلح (Taboo) إلى أن شيئا ما ممنوعٌ أو محظورٌ، فهو مصطلح بولونيزي الأصل، يطلق على كل ما هو مقدس، أو ما يحرم لمسه، أو الاقتراب منه؛ لأسباب خفية"[2]، فهو "وسيلةٌ مقنعةٌ بارعةٌ؛ لتلطيف الكلام، وتخفيف وقعِهِ"[3].

يقول دركزللي:" (تابو) كلمة تونغانية Tongan تدل على عبادة سادت الشعوب البولونيزية Polynesian وشعوب جنوب البحر الهادئ"[4].

يرى فرويد (Freud) " إن هذه العبادة البدائية نشأت من جراء قتل الأبناء أباهم؛ مما أشعرهم بالذنب، وجعلهم يخافونه ويتهيبونه"[5].

شغل موضوع المحظور اللغوي علماء العربية القدماء والمحدثين، وقد فطنوا له، ودرسوه تحت مباحث الكناية، وأنواعها، ودوافعها، واستعملوا بعض المصطلحات المتصلة به مثل: تحسين اللفظ، وتلطيف المعنى، والكنايات اللطيفة، والتعريض، والتنزيه. ولعل من أوائل من أشار إلى هذا المصطلح الفراء (ت 207 هـ) في (معاني القرآن) عند تناول قول الحق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سبأ: 24)، جاء فيه "والمعنى في قوله: ﴿وَإِنَّا

---

[1] محمد عفيف الدين دمياطي: محاضرة في علم اللغة الاجتماعي، سورابايا مطبعة دار العلوم اللغوية، ط 1، 2010، ص 173.

[2] أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 193.

[3] المرجع السابق، ص 196.

[4] عبد الرحمن دركزللي: الظواهر اللغوية الكبرى في العربية، سورية، حلب، دار الرفاعي للنشر، ودار القلم العربي، ط 1، 2006، ص 133.

[5] سيغموند فرويد: الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، اللاذقية، دار الحوار، ط 1، 1983م، ص 41.

أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ إنَا لَضالونَ أو مهتدونَ، وإنكم أيضاً لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رَسُوله المهتدِى وأن غيره الضَّال:الضالون. فأنت تقول في الكلام للرجل: إن أحدنا لكاذب، فكذّبته تكذيباً غير مَكشوف، وهو في القرآن وفى كلام العرب كثير: أن يوجّه الكلام إلى أحسن مذاهبه إذا عُرف؛ كقولك: والله لقد قدم فلان وهو كاذب بـ، فيقول العالم: قل: إن شاء الله، أو قُلْ فيما أظنّ فيُكَذّبه بأحسن من تصريح التكذيب، ومن كلام العرب أن يقولوا: قاتله الله، ثم يستقبحونها، فيقولونَ: قاتعه، وكاتعه. ويقولون: جُوعاً؛ دعاء على الرجل، ثم يستقبحُونها فيقولون: جُوداً، وبعضهم: جُوساً. ومن ذلك قولهم: وَيْحك وَوَيْسَكَ، إنما هي ويلْكَ إلاّ أنها دونها بمنزلة ما مَضَى"[1].

يكشف هذا النص إلى أن العرب – للتعبير عن معنى ما – قد حظرت بعض الألفاظ، وكرهت التلفظ بها، فتلجأ للتعبير عنه بألفاظ بديلة لا تستقبح ذكرها، ولا يستحى من جريانها على لسانهم، فجاء لهذا الغرض بالكناية– كما سيأتي – وهي أن تحل مصطلحات جديدة بدل مصطلحات أصلية، وقد أشار كثيرا إلى هذه الظاهرة – وهذا المصطلح والغرض – أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) في مصنفاته، وتناوله تحت مصطلح الكناية.

قال بعض المفسرين بالكناية في تفسير بعض آيات القرآن، قال أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ):" قال الجاحظ –في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾–: وقوله ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها إنها كناية عن العورة، ولما كثر في الكلام؛ قال بعض المفسرين: إنه يحتاج إلى كناية، فقال –في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾–: إنها كناية عن الفروج، كأنه لم يعلم أن كلام

[1]– الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): معاني القرآن، اعتنى به فائق محمد خليل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 2003، ج 4 ص 55.

الجلد من أعجب العجب، ولو كان كذلك لقال عند ذكر الفروج: والذين هم لجلودهم حافظون، ولقال: ومريم ابنة عمران التي أحصنت جلدها"[1].

تناوله أبو العباس المبرد (ت 285 هـ)، وسماه الكناية، وقسمه إلى ثلاثة أنواع: التعمية، والتغطية، والرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره.

يقول: " ويكون من الكناية – وذاك أحسنها – الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره. قال الله عز وجل:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة: 187)، وقالَ جلَّ ثناؤه: ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء﴾، ومن ذلك قولهم: (جاء فلان من الغائِط)، كناية عن الحدث، وإنما الغائط الوادي، قال عمرو بن مَعْدِي كَرِب: وَكَمْ مِنْ غَائِطٍ مِنْ دُونِ سَلْمَى ... قَلِيلِ الْأَنْسِ لَيسَ بِهِ كَتِيعُ"[2].

فالغائط عند العرب ما اطمأنَّ من الأرض، وكانوا فيما مضى إذا أراد الرجل قضاء حاجته طلب الموضع المطمئن من الأرض، فكثر هذا حتى سموا الحدث باسم الموضع. فالغائط هو المكان المنخفض الذي يذهب إليه عادةً من يريد قضاء حاجة الإنسان، والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الْغَآئِطِ﴾ فيه كناية عن قضاء الحاجة الناقضة للوضوء، ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء﴾ فيه كناية عن الجماع، وهو عمل يجب ستره، وإن كان مباحاً، فَحَسُنَ في الكلام ستره بالكناية، فقد جاء القرآن الكريم كلّه ليكون النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول – صلى الله عليه، وسلم – ثمّ من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء.

---

[1]- الثعالبي: رسائل الثعالبي، ج 1 ص 60.

[2]- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في الأدب، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1986م، ج 2، ص 856.

يقول ابن فارس (ت 395 هـ) تحت باب الكناية: "الكناية لها بابان: أحدهما: أن يُكْنى عن الشيء، فيذكر بغير اسمه تحسيناً للفظ، أو إكراماً للمذكور، وذلك كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾(فصلت: 21) قالوا: إن الجلود في هذا الموضع كناية عن آراب الإنسان، ومثله قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾(البقرة: 235)، كل هذا تحسين اللفظ. والكناية التي للتبجيل قولهم: (أبو فلان)؛ صيانة لاسمه عن الابتذال . . . "[1].

جمع ابن منظور (ت 711 هـ) هذه المعاني في لفظة (الكناية)، يقول: "الكُنْيَةُ على ثلاثة أوجه: أَحدها أَن يُكْنَى عن الشيء الذي يُستفحش ذكره، والثاني أَن يُكْنى الرجل باسم توقيراً وتعظيماً، والثالث أَن تقوم الكُنْية مَقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه كأَبي لهب، اسمه عبد العُزَّى، عرف بكُنيته؛ فسماه الله بها"[2].

الكناية في اللّغة أن تتكلّم بشيءٍ، وتُرِيد غَيْرَهُ[3]، يُقالُ لُغةً: كَنَى عَن الأمْر بغيره يَكْنِي كِنَايةً؛ أي: تكلّم بغيره ممّا يُسْتَدَلُّ به عليه. ويُقَالُ: تَكنَّى إذَا تَسَتَّرَ، مِنْ كَنَى عَنْهُ إذا وَرَّى، قال اللغوي الفرنسي فندريس (Vendryes): "الكناية ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات، فكيرا ما يقع لدى المتكلمين أن يكون لبعض الألفاظ طابع السرية والخفاء؛ فيمنع الأفرادَ من استعمالها"[4].

إن أصل الكناية تَرْكُ التصريحِ بالشيء، وسَتْرُهُ بحجابٍ ما، معَ إرادةِ التعريف به بصورة فيها إخفاءٌ ما بحجابٍ غير ساترٍ سِتْراً كاملاً، فيستطيع الكتب بأسلوب الكناية إخفاء ما يود إخفاءه حِرصًا على المكنى عنه، ورغبةً في عدم تردده على الألسنة، أو التعرض للأذى؛ لذا تفطن لمزيتها القدماء فعقد الثعالبي (ت 429 هـ) في

[1] أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د. ط، 1977، ص 439.

[2] ابن منظور: لسان العرب، مادة: (ك، ن، ي).

[3] المرجع السابق، مادة: (ك، ن، ي).

[4] فندريس: اللغة، ص 280.

كتابه (فقه اللغة وسر العربية) لها فصلاً سماه: فصل في الكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه"[1]ومما ذكر قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾(البقرة: 223)، وقول النبي(ﷺ) لقائد الإبل التي عليها نساؤه: رُوَيْدَكَ يَا أَنجَشَةُ، رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ.

وأفرد هذه الظاهرة بكتاب (الكناية والتعريض)، وصفه: "إنه كتاب خفيف الحجم، ثقيل الوزن، صغير الجرم، كبير الغنم، في الكنايات عمّا يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، أو يترفع ويصان عنه، بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، وتلطف الكثيف، وتكسوه المعرض الانيق"[2].

ممن أفرد هذه الظاهرة بالتأليف القاضي أبو العباس أحمد بن أحمد الجرجاني (ت 482 هـ) كتابه (المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء) ذكر من فوائده "التحرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة مستشهدا على ذلك بقوله تعالى:﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾(الفرقان: 72)؛ أي: كنوا عن لفظه، ولم يوردوه؛ فإنهم أكرموا أنفسهم عن التلفظ به"[3].

اهتم اللغويون المحدثون – حالهم في ذلك حال من سبقهم من اللغويين – بالمحظور اللغوي اهتماما ملحوظا، ودرسوه تحت مصطلحات مترادفة، كمصطلح كمال بشر (حسن التعبير)، ويعني به إبدال كلمة بأخرى مع كل شيء مقدس، وخطير، أو مخيف. لهذا يقول دمياطي: "المحظور اللغوي يعني الكلمات التي يشعر

[1] – الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد): فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: سليمان سليم البواب، دمشق، دار الحكمة، ط 2، 1989م، ص 386.

[2] – الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد): الكناية والتعريض، بيروت، دار الكتب العلمية: ط 1، 1984م، المقدمة منه ص 3.

[3] – الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 10.

المتكلم بالخوف، أو الحرج، أو الخجل من النطق بها، مثل الكلمات التي تعبر عن المرض، والموت، والأمور الجنسية"[1].

إن التَّلَطُف في التعبير قد عُرِف في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة بمصطلح (Euphemism)، ودلالته الحرفيةُ هي (الكلام الحسن = Well speaking) [2]، وقد تُرْجِمَ هذا المصطلح في العربية بألفاظٍ مختلفةٍ، فأطلق كريم زكي عليه مصطلح (تحسين اللفظ) [3]، وسماه أحمد مختار (التَّلَطف)، وهو " إبدال الكلمةِ الحادةِ بكلمةٍ أقلَّ حِدَّةً أو أكثرَ قبولاً"[4]، وقال الخولي هو(لطف التعبير)، وحده" بأنه استبدال بتعبير غير سار آخر أكثر مقبولية منه"[5]. قال أولمان (Ullmann): هو "وسيلةٌ مقنعةٌ بارعةٌ لتلطيفِ الكلامِ وتخفيفِ وقعِهِ"[6].

يُعَدُّ هذا الأسلوبُ الوجهَ المشرق للمحظور اللغوي، حيث يرى بعض علماء اللغة المحدثين أنَّ استبدال الكلماتِ اللطيفةِ الخالية مِن أيِّ مغزى سيءٍ أو مخيفٍ بكلمات المحظورات اللغوية يُعَدُّ ضرباً من ضروب التَّلَطف، أو حسن التعبير، أو تحسين اللفظ[7]. لهذا تشيع عبارات على ألسن مستخدمي اللغة عند كسر المحظور، أو أو عند صدور كلام يتأذى منه المستمع؛ فيقول: حَسِّنْ كَلَامَكْ، والعامة في مصر والسودان تقول لذي الكلام النابي: حَسِّنْ مَلَافَظَكْ.

---

[1] محمد عفيف: محاضرة في علم اللغة الاجتماعي، ص 173.

[2] سهير إبراهيم محمد حسن: صور التلطف في الأحاديث النبوية بصحيح البخاري (دراسة في ضوء علم اللغة الاجتماعي)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد السيد سليمان العبد، 2011، ص 7.

[3] كريم زكي: المحظورات اللغوية، مكتبة الانجلو المصرية، د. ط، 1985م، ص 17.

[4] أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص240 .

[5] محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، بيروت، مكتبة لبنان، ط 1، 1982، ص 88 .

[6] أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 196 .

[7] المرجع السابق، ص 196.

إن ظاهرة المحظور اللغوي ليست عادة مقصورة بحال من الأحوال على مجتمعات دون أخرى، أو لغة دون سواها، فهي معروفة في كل البيئات اللغوية، وفي كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة، تسهم فيها العادات، والتقاليد، والمعتقدات الدينية بشتى ألوانها، لهذا عرف الدرس اللغوي في اللغة الإنجليزية مصطلح(Euphemism) حُسْن التّعْبير، وهو "إرادة المتكلم من كلامه معنى يفهمه السامع من غير تصريح به"[1].

يقول علي وافي: "إن مصطلح التَّلَطف بالمعنى الاصطلاحي عُرِف في الدراسات الغربية الحديثة بمصطلح يوناني (Euphemism) تعنى الدلالةُ الحرفيةُ له الكلامَ الحسن (Well speaking)" [2].

يمكن القول بعد هذا العرض إن الحظر اللغوي أمر معروف في الألسن البشرية، وليس قصرا على واحدة منها، أمَّا العوامل الداعية إليه فكثيرة، لكنها تعود إلى أمرين: فردي، يعمد المتكلمُ إلى التَّلَطف في موقفٍ خاصٍ. والآخر ليس فردياً، إنما يعود إلى سلطة المجتمع، أو تواضع الجماعة اللغويّة.

2. 2. أسباب المحظور اللغوي.

تتأثر اللغة بالمجتمع، بنظمِه، وتقاليده، وعقائده، واتجاهاته النفسية، والثقافية، وغير ذلك من شؤون الحياة الاجتماعية، وكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير وهي اللغة[3]. فالمجتمع يمثل سلطة على مستخدمي اللغة؛ اللغة؛ لهذا يجب مراعاة هذه السلطة في استخدامها، لذا كانت ظاهرة المحظور

[1]- محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ط 1، 1985م، ج 1 ص 163.

[2]- علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، ص13.

[3]- المرجع السابق، ص 13.

اللغوي واقعة لا مفر منها، ولا ينكرها أحد من الدراسين في تراكيب لغتنا، فيعمد المتكلمُ إلى هذا الأسلوب في موقفين:

الأول: فردي، يعمد المتكلمُ إلى التَّلَطف في موقفٍ خاصٍ.

الآخر: ليس فردياً، إنما سبب يعود إلى سلطة المجتمع، أو تواضع الجماعة اللغوية.

2. 2. 1. فردي، يعمد المتكلمُ إلى التَّلَطف في موقفٍ خاصٍ.

هو سبب فردي، يعمد المتكلمُ – فيه – إلى التَّلَطف، وتحسين التعبير، وهذا لا يتأتى لكل أفراد المجتمع، بل هو من خصائص ذوي الفطنة، والذكاء، فيلجأ المتكلم بكياسته، وأدبه، واحتشامه إلى التحرز عن ذكر الألفاظ المحرمة أو التصريح بالألفاظ المحظورة، فيعدل إلى التلطف بألفاظه، وهو مطلوب مستحب ليس في العربية فحسب بل في معظم اللغات، لأن الكلمات الخادشة في هذا المجال مفضوحة ينفر منها الناس[1]. وقد أشار القدماءُ من علماء العربية إلى نظائر هذه المواقف، وحاولوا علاجَها تحت بابِ التخلص من الكذب بالتورية عنه، مستشهدين على ذلك بما روي عن النبي (ﷺ): "إنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنْ الْكَذِبِ"[2]، والمعاريض هي ألَّا يصرحَ بالمنع من الشيء، أو إجابة الإنسان إلى الشيء، وإنما يؤتى بكلام عام يكون صرفاً له لئلا يخدش شعوره[3]، من أمثلة ذلك ما يُروى أنَّ الخليفةَ المنصورَ كان في بستان ومعه

[1]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص 142.

[2]- ابن بطال القرطبي: شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، مكتبة الرشد، ط 2، 2003م، ج 9 ص 357.

[3]- عبد الله الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ط 1، 1985، ج 18 ص 19.

الربيع، فقال له: ما هذه الشجرةُ ؟ قال الربيع: شجرةُ الوِفاق يا أميرَ المؤمنين، وكان اسم تلك الشجرةِ شجرةَ الخلافِ، فتفاءل المنصورُ بذلك، وعَجِبَ من ذكائه[1].

من ذلك ما رُوى عن الخليفة المأمون أنه كان بيده مساويك، فسأل الحسنَ بنَ سهلٍ ما هذه ؟ فقال: ضدُّ محاسنك يا أميرَ المؤمنين، وكره أن يقولَ مساويك[2]. ومن محاسن ما ذكر في باب الفراسة أن الرشيد رأى في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره الفضل: ما هذه ؟ قال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل:الْخَيْزُرَانُ؛ لموافقة اسم أمه[3].

يبدو أنَّ مثل هذه المواقف هو ما أوحى لابنِ دريد بتأليف كتابه (الملاحن)، فهو يقوم على استخدام اللفظ المشترك على سبيل التورية لمعانٍ أخرى خلاف ما هو ظاهرٌ، أو على قول مؤلفه:" هذا كتابٌ ألفناه ليفزعَ إليه المجبرُ المضطهدُ على اليمين، المكره عليها، فيعارضُ بما رسمناه، ويضمرُ خِلافَ ما يُظهرُ ليسلمَ من عادية الظالم..."[4].

إن انتقاء الألفاظ فضل وكرامة، فالغرض الذي يمكن أن يؤدى بكلمة طيبة لا يعدل عنه إلى كلمة شديدة؛ لقوله (ﷺ) في الحديث الذي ترويه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، وعن أبيها:" إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ"[5]، وقد وردت للسلف في هذا جملة هائلة من الأقوال، فقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– في موقفه مع المرأة

---

[1]- الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 71، وابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر): الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت، ص 62.

[2]- الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 71، وابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية، ص 62.

[3]- ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية، ص 62.

[4]- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي): الملاحن، تصحيح وتعليق إبراهيم الطفيش، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1987، ص 15.

[5]- الحميدي: الجمع بين الصحيحين، ج 4 ص 168.

الفقيرة وعيالها: حين خرج يعُسُّ المدينة بالليل فرأى ناراً موقدة في خباء فوقف فلم يقل: يا أصحاب النار! وإنما قال: يا أهل الضوء[1].

إن المؤدى واحد، ولكن الرفق والتفاؤل مطلوب، والكلمات المشعرة بإزعاج تجتنب، ففرق بين قولك: يا أهل النور! أو يا أصحاب الضوء! وقولك: يا أصحاب النار! أو يا أهل النار! مع أن المؤدى – من هذا ومن ذاك – واحد.

من الألفاظ المذمومة المستعملة في العادة قولك لمن يخاصمك: يا حمار، يا تيس، يا كلب، ونحو ذلك، فهذا قبيح لوجهين، أحدهما: أنه كذب. والآخر: أنه إيذاء، وهذا بخلاف قولك: يا ظالم، ونحوه، فإن ذلك يسامح به لضرورة المخاصمة، مع أنه يصدق غالباً، فقلَّ إنسان إلا وهو ظالمٌ نفسه ولغيرها[2].

2. 2. 2. ليس فردياً، إنما سبب يعود إلى سلطة المجتمع، أو تواضع الجماعة اللغوية.

إن الحركة المستمرة التي تتسم بها المنظومة اللغوية، تنم عن طابع اللغة الوظيفي الاجتماعي، يبقى المتحكم في آليات استعمال المعجم اللغوي هو العرف الاجتماعي الذي هو خلاصة تراكمات نفسية وثقافية متشابكة، فاللغة بوصفها ظاهرةً اجتماعيةً تُخْضِع الفردَ لِمَا ترسمه، فالدوافع النفسيةُ أو العاطفيةُ التي تفرضُ على الجماعة اللغوية نهجاً محدداً في التعبير ليس للفرد إلا محاكاتُها واتباعُها، وذلك ينطبق على جُلِّ الدوافع التي تعود إلى الحياة الاجتماعية كالكياسة، والتأدب، والخوف، والتفاؤل، والتشاؤم ونحوها من الدوافع التي تلجأ الجماعة اللغويةُ إلى التَّلَطف بشأنها بعباراتٍ كريمةٍ، وألفاظٍ نبيلةٍ.

إن الفرد هنا يحاكي مجتمعه، مراعيا أصوله، وضوابطه؛ لذا مرَّ معنا أنَّ العربَ مثلاً يعيبون على الرجل إذا كان يكاشفُ ويصرحُ فيما حَقُّهُ الستر، والتحرزُ،

[1]- ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية، ص 62، وبكر بن عبدالله: معجم المناهي اللفظية، ص 201.

[2]- المرجع السابق، ص 62 .

والأدبُ، فتراهم يقولون فيه: فلانٌ لا يحسنُ التعريضَ إلا تَلْبا، والتعريض خلافُ التصريحِ[1]، ويسمى التلويح؛ لأنه يلوح منه ما يريده، والتعريض في اللغة أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده[2]، ويصلح للدلالة على غير مقصوده إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح، وأصله من عرض الشيء، وهو جانبه، كأنه يحوم حوله ولا يظهره.

[1]- قال الجرجاني (ت 471 هـ):"فصل في الكناية والتعريض. هذا فنٌ من القول دقيقُ المسلم لطيفُ المأخذ"، (الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 255)، وقد تناول غير واحد من اللغويين فن التعريض تحت باب الكناية كابن عبد ربه (ت 328 هـ)، ينظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 1 ص 242، ومحمود صافي: الجدول في إعراب القرآن، ج 2 ص 501)، إلا أن أكثرهم فرق بينهما، فوضع السبكي (تقي الدين علي بن عبد الكافي) (ت 756 هـ) كتابا سمَّاه (الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض)، وقد سبقه إلى هذا التفريق جملة من العلماء، كالزمخشري (ت 538 هـ)، قال –عند تفسيره الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة الثانية من سورة البقرة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾–:"فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء – بغير لفظه الموضوع له– بذكر لوازمه، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف. التعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك؛ لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا: وَحَسْبُكَ بِالتَّسْلِيمِ مِنِّي تَقَاضِيَا"(الزمخشري: الكشاف، ج 1 ص 216) .

قال ابن الأثير (ت 637 هـ) في أول باب عقده بعنوان (في الكناية والتعريض):"وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا وقد تكلم علماء البيان فيه فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر وأدخلوا أحدهما في الآخر فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فممن فعل ذلك الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري فأما ابن سنان فإنه ذكر في كتابه قول امرئ القيس: (فَصِرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُهَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةَ أَيَّ إِذْلالِ) وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثال للتعريض.

ووجدت في كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان مشارا إليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فن الكتابة فوجدت في كتابه ذلك بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض وما قيل فيهما نظما ونثرا وهو محشو بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما وقد أورد أيضا في بعضه أمثلة غثة باردة) (ابن الأثير أبو الفتح نصر الله بن مُحَمَّد الموصلي: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّيْن عَبْد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ط 1، 1995، ج 2 ص 180).

[2]- الدينوري (أبو بكر أحمد بن مروان المالكي): المجالسة وجواهر العلم، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت، دار ابن حزم، والبحرين – أم الحصم، جمعية التربية الإسلامية، د. ط، 1998، ج 8، ص 25.

يرى أولمان أنَّ دوافع حسن التعبير دوافعٌ نفسيةٌ، وأنَّ المتكلمَ يعمد إلى استعمال هذا الأسلوب مع كل شيءٍ مقدس، أو ذي خطر، أو مثير للرعب والخوفِ، ويطبقه على الأشياءِ الشائنةِ، أو غيرِ المقبولةِ لدى النفس[1]. يُجْمِل كريم زكي هذه الدوافعَ في ثلاثةٍ هي: الخوف والفزع، الكياسة والتأدب، الخجل والاحتشام[2].

يرى فرويد (Freud)"إن العوامل النفسية تنفرد بدور مهم في إحداث التغير الدلالي الناتج عن (التابو) وهو اسم للمحظور والممنوع ذكره، حيث يتحرّج المرء من استعمال بعض الكلمات التي لها إيحاءات مكروهة، أو لدلالاتها الصريحة على ما يُستقبح ذكره"[3].

ألزم عبد الرحمن الميداني المتكلم ليرقى بأسلوبه، وليصل إلى أعلى درجات الفصاحة أن يحترم المخاطب بالتأدّب معه، ويراعي مشاعره، يقول: "من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام احترامُ المخاطب بالتأدّب معه، ورعاية مشاعره، وذلك بالابتعاد عمّا يشمئزّ منه، وبِعَدَم مواجهته بالألفاظ الصريحة الدالّة على المستقذرات، أو المعاني التي يَجْمُلُ التستّر بها مع أنّها معلومة. والأديب ذو الحسّ المرهف يُلْقِي على المعاني التي لا يجمل التصريح بها سِتْراً كلاميًّاً، إذ يدلُّ عليها بالكنايات والإشارات والتلميحات ومعاريض الألفاظ"[4].

في مثل هذا الموقفِ تكون الدواعي الاجتماعية واضحة جدا في مراعاة التَّلَطف في التعبير، يقول فندريس (Vendryes):"الأسباب الاجتماعية واضحة جدا في تغير الكلمات مراعاة للياقة. إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن

[1] أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 196.

[2] كريم زكي: المحظورات اللغوية، ص 51.

[3] سيغموند فرويد: الطوطم والتابو، ص 44.

[4] عبد الرحمن الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص 85.

أفعال معروفة بالفظاظة أو بأنها مما يجرح الحياء، وتستبعد الألفاظ التي تعبر عنها من بين المفردات التي يستعملها الأشخاص المهذبون"[1].

تختلفُ الحالةُ الاجتماعيةُ من أمةٍ إلى أمةٍ، ومن بيئة إلى بيئة، ومن جيلٍ إلى جيلٍ، فلعل ما يدعو إلى التَّلَطف عند أمةٍ لا يدعو إليه عند أمةٍ أخرى، ولا أدل على ذلك إلا ما سبق وأشرنا إليه من أنّ اللاتينيين مثلاً يعبرون عن العورات والأمور المستهجنة بعبارات صريحة مكشوفة على حين أنَّ العرب تتلمس أحسنَ الحيل، وأدناها إلى الحشمةِ والتأدب في التعبير عن هذه الأمورِ بأسلوبٍ ألطفَ وأحسنَ[2].

يمكن إجمال أهم داعية حضور المحظور اللغوي في معجمنا اللغوي، في الأسباب الآتية: (الخجل والاحتشام، والاشمئزاز، والخوف، والتقديس) سنتفحص – الآن – هذه الأسباب المذكورة آنفا:

أولا: <u>الخجل والاحتشام</u>.

تُعبر العربُ عن الأفعال التي تُستر عن العيون وتتأذَّى منها النفوس بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها، تنزها عن إيرادها على جهتها وتَحَرُّزاً عمّا وُضِع لأجلها إذ الحاجة إلى ستر أقوالهم كالحاجة إلى سترِ أفعالهم فيتحرزون عن التصريح بالتعريضِ فيكنون عن لفظه، إكراماً لأنفسهم عن التلفظ به[3]، أو يحذفون اعتمادا على ذكاء المخاطب، وقدرته على فهم المراد كما روي عن أم المؤمنين عائشة في حديثها:" مَا رَأَيْتُ مِنْهُ، وَلَا رَأَى مِنِّي"[4] حيث حذفت ما يستهجن التصريح بذكره، فالتقدير: ما رأيت منه العورة، ولا رأى مني العورة، فهي تريد العورة المغلَّظة.

---

[1]- فندريس: اللغة، ص 279.

[2]- علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، ص 55.

[3]- الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 5.

[4]- الخطيب القزويني (أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني): الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت، دار إحياء العلوم، ط 4، 1998، ج 1ص 108، وأبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، ص 335، وعبد الرحمن الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص 86 .

يقولُ الثعالبي (ت 429 هـ) في الكنايةِ عن الختانِ: " ويكنى عن الختان بالطهر والتطهير"[1]، ويشمل هذا الأمر كل ما يتصل بالجنس، والعورات، والمحارم، فيكني عن ذلك كله بألطف لفظ، يقول الجرجاني (ت 482 هـ): "وتقول العربُ في الكنايةِ عن دخول الإنسان بأهله: بنى فلانٌ على أهله، وأصلُه أنَّ كلَّ من أراد الزّفافَ بنى على زوجتهِ قبةً، فقيل لكل داخل بانٍ"[2].

فالعربي – مثلا – يخجل من ذكر اسم زوجته الصريح، واسم بناته، وإذا اضطر إلى ذلك استخدم البديل، مثل: بنت العم، أو بنت عمي، أهل بيتي، أسرتي، يقول الثعالبي (ت 429 هـ) في ختام كلامه حول الكنايات الخاصة بالمرأة: " وإنما تقع مثل هذه الكناية عمن لا يجسرون على تسميتها أو يتذممون من التصريح بها"[3]. وقد عَلَّلَ الجرجاني (ت 482 هـ) لكثرة الكناياتِ عن المرأة عند العرب، وأنّها من باب التذمم من التصريح باسم المرأة[4]، كما هو الحال في وقتنا الحاضر، وقد رثى المتنبي (ت 354 هـ) أخت سيف الدولة الحمداني (ت 356 هـ) أمير حلب فلم يذكر اسمها الصريح، بل قال:

كَأَنَّ (فَعْلَةَ) لم تَمْلأ مَوَاكِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلم تَخْلَعْ وَلَم تَهَبِ

هنا نلاحظ أن المتنبي لم يصرح باسمها؛ استعظاما لكونها ملكة بل كنى عن اسمه باستخدم الوزن الصرفي (فَعْلَةَ) بدلا من الاسم الحقيقي (خَوْلَةَ). من أمثله هذا في شعر المتنبي (ت 354 هـ) قوله:

يَا وَجْهَ (دَاهِيَةَ) الَّتِي لَوْلَاكِ مَا أَكَلَ الضَّنَى جَسَدِي وَرَضَّ الْأَعْظُمَا

[1] الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 24.

[2] الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 23.

[3] الثعالبي: رسائل الثعالبي، ج 1 ص 58.

[4] الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 77.

استشهد البغدادي بقول المتنبي هذا في باب الكناية، يقول: " قال ابن فورجة: داهية ليست باسم علم لمحبوبته، ولكن كنى بها عن اسمها على سبيل التضجر؛ لعظم ما حل به من بلائها؛ أي: إنها لم تكن إلا داهية عليه، وزعم ابن جني أن داهية اسم التي شبب بها، ولم يصب الواحدي في قوله: الوجه قول ابن جني، فترك صرفها في البيت، ولو لم يكن علماً كان الوجه صرفها "[1].

يقوي قول ابن جني (ت 392 هـ) كون سيبويه (ت 180 هـ)[2] يجري كناية العلم في الصرف ومنعه على حال العلم، فلو لم تكن علماً لكان الوجه صرفها.

يقول فندريس (Vendryes): "للتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للأذن. لذلك لم نستبق نحن كلمة واحدة من مشتقات الفعل اللاتيني (mingere = يبول)، والفعل (pisser) الذي استعضنا به عن السابق لم يعد هو الآخر يستعمل في مجتمع راق، بل يستعاض عنه بالفعل (uriner) الذي هو أقل منه خشونة. ولم ينج الفعل (vomir = تَقَيَّأَ) من الضياع إلا ما له من صفة طيبة، ولكنه تعبير خشن ويستعاض عنه بأبدال مثل: (rejeter) و(rendre) و(s'expliquer) إلخ. والألمانية – أيضا – تستعيض عن (ausbrechen) بـ(sich uber – geben)" [3].

إن الألفاظ بحد ذاتها لا يمكن أن تصف على أنها بذيئة (dirty)؛ لأنها ليست سوى تجمع للأحرف، فالعرف هو الذي يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة[4]، فنحن لا نعرف لماذا حُظِرَت كلمة (قَحْبَة) مثلا، ولم تحظر كلمة (بَغِي)، فهي مقبولة بدليل

---

[1] البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريف، وإميل بديع اليعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1998م، ج 6 ص 406.

[2] لإفادة من كلام سيبويه ينظر: سيبويه: الكتاب، تحقيق إميل يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1999، ج 2 ص 6.

[3] فندريس: اللغة، ص 279.

[4] المرجع السابق، ص 279.

استخدامها في القرآن الكريم، فكلمة (قَحْبَة) بالغة الخطورة في التعاملات الشفهية؛ نظرا لما تحمله من معاني: مومس، عاهرة، ساقطة وغيرها. مع العلم أنها في اللّغة العربية لا تعدو أن تكون مرادفة (السُّعال)، قال ابن قتيبة (ت 276 هـ) في كتابه (الجراثيم): "القَحْبُ: سُعَالُ الشَّيخِ وَالْكَلْبِ، قَحَبَ يَقْحَبُ قُحَاباً وَقَحْباً، ويقال أخذه سُعالٌ قَحْبٌ، وأهلُ اليمنِ يسمون المرأة الْمُسِنَّةَ: قَحْبَةً، بِلُغَتِهِم"[1].

على هذا المعنى نصت معاجم اللغة مع زيادة وتفصيل، يقول ابن منظور (ت 711 هـ): "قَحَبَ الرجلُ، والكلبُ، وقَحَّبَ سَعَل، ورجل قَحْبٌ، وامرأَة قَحْبة كثيرة السُّعال مع الهَرَم، وقيل: هما الكثيرا السُّعال مع هَرَم أَو غير هَرَم"[2]، جاء في تاج العروس: " القَحْبُ: الشَّيْخُ المُسِنُّ، والعجُوز قَحْبَةٌ، وهو الَّذِي يَأْخُذُه السُّعَالُ"[3].

فالإنجليز لا يعلمون ما الذي جعل (vagina = فرج) مقبولة ؟ على حين عُدت مرادفتها (cunt) من المحظور، وفي العربية يستخدم العلماء (قضيب) في الكتب حتى المدرسية منها، على حين تعد مرادفتها من المحظور.

قد يكون الوضع المجازي (القضيب) خفيف وقع هذه اللفظة، وهو أمر لا يجده المتلقي في ما وضع على أصله، يقول أبو منصور في التهذيب:" ويُكْنَى بالقَضِيب عن ذَكَرِ الإنسانِ، وغيرِه من الحيوان"[4]، ونقل هذا القول الزبيدي (ت 1205 هـ) في تاج العروس، يقول: " القَضِيبُ: (الذَّكَرُ) من الحِمَار، وغيرِهِ. وقال أَبو حاتِمٍ: يقالُ لذَكَرِ الثَّوْرِ: قَضِيبٌ وقَيْصُومٌ. وفي التّهذيب: ويُكْنَى بالقَضِيب عن ذَكَرِ الإنسانِ، وغيرِه من الحيوان"[5].

---

[1]- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): الجراثيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، قدم له مسعود بوبو، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، د. ط، 1997، ص 147 .

[2]- ابن منظور: لسان العرب، مادة: (ق، ح، ب).

[3]- – الزبيدي: تاج العروس، مادة (ق، ح، ب).

[4]- أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، مادة: (ق، ض، ب).

[5]- الزبيدي: تاج العروس، مادة (ق، ض، ب).

يرى بعض اللغويين أن ذلك يرجع لأسباب دينية أو اجتماعية، فكلمة (bloody) (دَمَوِي) مثلا تعد في الإنجليزية من المحظورات، بدليل أنهم لا يكتبونها بشكل كامل، بل يستخدمون عند كتابتها مختصرا لها (b....y) تُرى هل لأنها تدل على دم المسيح كما زعم بعضهم[1].

يقول فندريس:" في الإرلندية اثنا عشر اسما، ومثلها (للسالمون) ونحن نعرف، من مصادر أخرى، أنهما من الحيوانات التي جعل منها الخيال الشعبي تابوهات (Tabous) وحيوانات الصيد على العموم تحاط بقوى سحرية، فما أكثر تابوهات الصيادين. كذلك يدل بالمترادفات في غالب الأحيان على الحيوانات البرية"[2].

أخيرا يتساءل المرء: هل كثرة المفردات تدل على نفسية الشعب الذي أنتجها ؟ أي: هل تحمل كثرة الترادف دلالة معينة ؟ في العربية نجد: (عاهرة، ساقطة، زانية، فاجرة، فاسقة، ...)

ولو وقفنا على أحد معاجم اللغة باحثين عن مرادفات كلمة (نَكَحَ) تجدها تزيد على سبعين لفظة (وسنذكر بعضها في باب تحاشي المحظور، أو التطلف في التعبير)، فهل تدل هذه الكثرة على انحلال العرب أخلاقيا ؟

لئن صح هذا فإن الإنجليز موصوفون بالعُهر؛ لكثرة ما لديهم من مرادفات لكلمة (عاهرة).

prostitute / cocotte / whore / harlot / bawd / tart / cyprian / fancy woman / working girl / sporting lady / lady of pleasure / woman of the streer / ...

الإجابة عن هذه سهلة، لعل فندريس (Vendryes) يلخصها بقوله: "ولما كان يتحتم عليهم دائما أن يجدوا كلمات للأشياء كلما دعت إلى ذلك فرصة، فإنهم

[1]- عبد الرحمن دركزللي: الظواهر اللغوية الكبرى، ص 133.

[2]- فندريس: اللغة، ص 281.

يضطرون إلى تجديد المفردات"[1]، لَمَّا شاعت اللفظة الْمُكَنَّى بها عن العورة حلت محل المصطلح الأصل، وأخذت مكانه ودلالته، فكان لزاما من إيجاد كناية جديد، أو لفظة يكنى به عن هذا الموضوع؛ فكثرت – من أجل هذا – الألفاظ في اللغات.

ثانيا: <u>الاشمئزاز</u>.

قد تعدل اللغة بإشراف المجتمع عن استعمال بعض الكلمات لما لها من دلالات مكروهة، أو ما يشمئز المجتمع من ذكرها، أو يمجها الذوق الإنساني، ويخضع ذلك لثقافة المجتمع، ونمط تفكيره، وحسه التربوي[2]. وتتفاوت المجتمعات في الانتباه إلى هذه القضايا بتفاوت مستوياتهم الثقافية والتعليمية، فيلجأ المجتمع اللغوي إلى تغيير ذلك اللفظ ذي الدلالة الممجوجة بلفظ آخر ذي دلالة يستحسنها الذوق، وهذا النزوع نحو التماس التلطف في استعمال الدلالات اللغوية يظهر في الألفاظ الجالبة عند نطقها الاشمئزاز كألفاظ البول، والغائط، والقيء، والمراحيض، وما يفرزه الجسد، يقولُ الثعالبي (ت 429 هـ):"ومن لطائف الأَطِبَّاءِ كِنَايَتُهُمْ عن حشوِ الأمعاءِ بالطبيعةِ، وعن البولِ بالماءِ، وعن القيء بالتعالج"[3].

ذكر الآمدي في معرض حديثه عن التحول في الدلالة الناشئ عن ظاهرة اللامساس أو التلطف في التعبير بسبب الاشمئزاز، يقول: "إن اسم الغائط قد اشتهر في عرفهم بالخارج المستقذر من الإنسان، حتى أنه لا يفهم من ذلك اللفظ عند إطلاقه غيره، ويمكن أن يكون شهرة استعمال لفظ الغائط في الخارج المستقذر من الإنسان؛ لكثرة مباشرته وغلبة التخاطب به مع الاستنكاف من ذكر الاسم الخاص به، لنفرة الطباع عنه، فكنوا عنه بلازمه أو بمعنى آخر"[4].

---

[1]- المرجع السابق، ص 280 .

[2]- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص240.

[3]- الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 24.

[4]- الآمدي (محمد بن علي): الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرازق عفيفي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 1، 1981، ج 1، ص 27 .

وضعت العربية جملة من الألفاظ للتعبير عن (البراز، والغائط، والحدث)، وقد تستخدم العربية الاسم الموصول (ما) عند استهجان التصريح بالاسم، أو استحقاره، كقول الفقهاء: ينقض الوضوءَ (مَا) يخرج من بين السبيلين. أو قولك معاتبا: بئس (مَا) صنعت. ويستخدم الناطقون بالإنجليزية عبارة (May I wash my hand) للتعبير عن فكرة (أريد أن أتبول)، وتستعمل العربية بدل مرحاض (الكنيف، المستراح، بيت الراحة، بيت الخلاء، دورة المياه).

ثالثا: <u>الخوف</u>.

لعل سرَّ التلطفِ في هذا المجال هو ما استقرَّ في أذهانِ الناس منذ القدم من الربط بين الدال ومدلوله ربطا وثيقا حتى إنه يُعْتَقَدُ أن مجردَ ذكر الموت يَسْتَحْضِرُ الموتَ، وأن النطق بلفظ الحية يدعوها من جحرها، فتنهش من ناداها، أو ذَكَرَ اِسْمَهَا[1]، يقول جسبرسن (Jespersen):"تحت ظروف اجتماعية معينة، وفي أوقات وأماكن معينة يكون استخدامُ كلمةٍ أو كلماتٍ محظورا؛ لوجود اعتقاد خرافي يقتضي بعض العواقب الشريرة، كما في الخوف من استعمال كلمة (demons) شياطين، وأشباهها"[2].

يقول فندريس (Vendryes):"عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة (عملية = operation) التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة. لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات المرعبة، والملابس الملوثة بالدماء، والجسم وقد طواه الألم طيا. فكلمة (operation) ضحية الصور التي تثيرها؛ لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها

[1]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص 144.

[2]- عصام أبو زلال: التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم دراسة دلالية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 2001، ص 45.

بكلمة (intervention = تدخل)؛ لأنها أنضر جدة منها، وأكثر تحفظا، وأشد غموضا أيضا، لا يهلع لسماعها قلب المريض"[1].

إن هذا الأمر لم يكن بعيدا عن عادة العرب، فقد جرت عادتهم في تكنيتهم عن كل مخيف، كالقتل، والموت، والمرض، قال ابن قتيبة (ت 276 هـ) في (تأويل مشكل القرآن):"ومن المقلوبِ أن يوصفَ الشيءُ بضدِّ صفتِهِ؛ للتطيرِ، والتفاؤلِ، كقولِهم للديغِ: سليمُ؛ تطيراً من السُقْمِ وتفاؤلاً بالسلامة، وللعطشان: ناهلٌ؛ أيّ: سينهلُ، يعنون يروى، وللفلاة: مفازةٌ؛ أي: منجاة وهي مَهْلَكَةٌ"[2].

حكى الثعالبي (ت 429 هـ) عن العرب قولهم في الكناية عن الموت: "استأثر اللهُ به، أسعده اللهُ بجواره، نقله اللهُ إلى دار رضوانه، اختاره الله "[3]. وذكر الجرجاني (ت 482 هـ): "ومن ذلك قولُهم: لحق فلان باللطيف الخبير، ولعق فلانٌ إصبعه، واستوفى أكله، واصفرت أناملهُ، ومضى لسبيله، وَدُعِيَ فأجاب، وَقَضَى نحبه، والنحب النذر"[4].

ويقول في موضوع آخر: "واعلم أنَّ العربَ كما يكنون عن الموت تطيراً من ذكره، كذلك يكنون عن القتل، ... فيقولون: ركب فلانٌ الأغرَّ الأشقَر إذا قُتل، ويكنى عن قتل الملوك خاصة بالمشعرة، إذ كانوا يكبرون أن يقولوا قُتِل، فيقولون: أشعر من إشعار البدن، . . .، ومما يُتَفَاءَل بذكره قولُهُمْ للفلاةِ: مفازةٌ؛ لأن القفارَ في ركوبها الهلاكُ فكان حقُها أن تسمّى مَهْلَكَةً، ولكنهم أحسنوا لفظها تطيراً بها، وعكسوه تفاؤلاً، ومن ذلك تسمية اللديغ سليماً، والأعور ممتعاً تطيراً من ذكر العور"[5].

---

[1] فندريس: اللغة، ص 280 .

[2] ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، دار التراث، ط 3، 1973، ص 185.

[3] الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 64 .

[4] الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 64.

[5] المرجع السابق، ص ص 67 – 69 (بتصرف).

يقول الثعالبي في الكناية عما يُتطيرُ من لفظه:"يكنى عن اللديغ بالسليم، وعن الأعمى بالبصير، وعن المهلكةِ بالمفازة"[1].

ينطبق هذا الحظر على كل ما يكسب الإنسان الرهبة كالموت، والأمراض؛ فبهدف تخفيف إيلام وقع هذه الألفاظ، يقول فندريس (Vendryes): "هناك أفكار يعبر عنها غالبا بالكناية، ومنها فكرة الموت، فبدلا عن (mourir = يموت) تقول الفرنسية: (perir = يفنى)، (passer = يمر)، (trepasser = يعبر)، (deceder = معناها الأصلي يذهب)، (s'endormir = ينام)، (rendre son ame a Dieu = يرد روحه إلى الله)، إلخ، أو تستعمل فقط (partir)، أو (s'en aller = ينطلق)، . . .، ويقال في الألمانية: (vergehen)، و(erblassen)، و(verbleichen). هذه العبارات المخففة تصور شبح الموت في صورة أقل إيلاما"[2].

ينسحب حظر لفظة الموت وما يؤدي إليه على البيئة العربية، فتسمع على لسان العامة – في بعض البلاد العربية – استعمال عبارات متباينة للتعبير عن (الموت)، نحو: (سَلَّمَ الأمانة)، (أسْلَمَ الرّوح)، (عَطَاكَ عُمْرَه)، (اِنْتَقَلَ إلى جِوَارِ رَبِّه)، (اِخْتَارَهُ الرَّحْمَن).إن دلالة هذه الألفاظ تعود إلى فلسفة (الموت) إلا أن اللفظة المستعارة قد تخفف على النفس وطأة لفظة (الموت)، فمن صور هذا الحظر ما تجده عند الإنجليز، يستخدمون في حالات كثيرة الفعل (pass away)، بدلا عن الفعل (die = مات).

إن الموت في الثقافة الصينية –مثلا– حدث جلل، يمثل نهاية ليس بعدها بداية، لذا يحظرونه، ويحظرون ما يرتبط به، كالرقم (أربعة)، فهو من الأرقام شديدة الكراهية في عند الصيني؛ لارتباطه عندهم بالموت، فنطق الرقم هو نفسه نطق كلمة الموت أو قريبا منها، مما جعل الصينين يحظرون استخدام هذا الرقم، وقد توصل

[1]- الثعالبي: الكناية والتعريض، ص 71.

[2]- فندريس: اللغة، ص 280.

باحث بجامعة كاليفورنيا في مدينة سان دييجو (San Diego) إلي أن الوفيات الناجمة عن الأزمات القلبية بين سكان الولايات المتحدة الذين من أصل صيني وياباني تميل إلي الارتفاع في اليوم الرابع من الشهر. وهي زيادة فسرها بأنها ترتبط بالضغط النفسي الذي يشعر به من يؤمن بهذه العقيدة نتيجة الخوف من الرقم أربعة!

تماثلُ الحضارةُ اليابانية الفكرَ الصيني في كثير من العقائد[1]، ومنها هذه العقيدة، فاليابانيون يحظرون – أيضا – الرقم (أربعة)؛ لأن نطقه يتلاقى مع نطق لفظة (الموت)؛ فمن أجل هذا الاعتقاد تتجنب الفنادق والمستشفيات في الصين واليابان وضع الرقم (أربعة) على الغرف، والطائرات[2]، يقول صلاح منتصر في مقالة (الصين بين الأسطورة والخرافة):" إن القوات الجوية الصينية تتحاشي استخدام الرقم (أربعة) على طائراتها!" [3].

إن الخوف من مساس لفظة (الموت) وحظرها يتصاعد في الإنسان؛ لاكتساب لفظة الموت فداحة الشعور برهبته في سياق العلاقة بالآخَر، ولذلك تكمن في الإنسان

---

[1]- إن اللغة اليابانية لا تمت للغة الصينية بأي صلة إلا اعتماد اليابانيين المقاطع الصينية المسماة الكانجي كأساس نظامهم الكتابي.

[2]-تختلف الثقافات حول الأرقام ودلالاتها، فكثير من الحضارات – القديمة والأخرى حديثة العهد – تؤمن بوجود الحظ في أرقام معينة، وانعدامه في أرقام أخرى، فتحظرها، ففي المجتمعات الغربية ثمة خوف غير عقلاني من الرقم (ثلاثة عشر)، حيث يعده بعضهم رقماً مشؤوماً، فلا يرغب أن يرتبط هذا الرقم بأي شيء يخصه، فهم يتجنبون أن يكون رقم منزلهم الثالث عشر، أو تكون غرفته في الفندق – أو المكان الذي يسكنون فيه – الثالثة عشرة، ولا يرغب بعض من يؤمن بهذا الاعتقاد في تناول الطعام على مائدة عليها ثلاثة عشر شخصاً. لعل مصدر التشاؤم من هذا الرقم (الثالث عشر) يعود إلى فكر السريان، فقد كانوا في بداية المسيحية يستعملون القوى العددية للأرقام، وبما أن يوم الاحد هو يوم راحة وعطلة لا يجوز العمل فيه بل يكرس للعبادة، فكان السريان يعتقدون أن من يعمل يوم الأحد سيصيبه الشؤم والحزن ولن يتوفق في عمله في يوم الأحد؛ لأن غضب الله سيحل عليه، والقوة العددية ليوم الأحد هي 13، حيث إن الألف رقم واحد، والحاء رقم ثمانية، والدال رقم أربعة، وبذلك يكون مجمع القوى العددية ليوم الاحد هو ثلاثة عشر.

[3]- صلاح منتصر: مقالة (الصين بين الأسطورة والخرافة)، مجلة الشباب، مجلة الشباب هي مجلة شهرية تصدرها مؤسسة الأهرام للصحافة والنشر وهي أكبر مؤسسة صحفية في الشرق الأوسط، صدر العدد الأول من المجلة عام 1977.

غريزة الموت التي تعبر عن محاولة المرء العودة إلى حالة ما قبل الكينونـة، وهي حالة الكينونة بلا آخَر (l'autre) (the other one)؛ أي: حالة اللاموضوع[1].

تزود الأسطورة الإنسان برهبة مضاعفة في نسيج هذه اللفظة (الموت)؛ مما يدفعه جاهدا إلى إيجاد بديل عنها، لعله يجد في الجديد ما يخفف رهبة اللفظ الأول، "الأسطورة تجعل الموت نسيانا، والحياة ذكرى، فبدون هذه الذاكرة يصير الإنسان حالة أشبه بالموت؛ لأن نسيان الماضي هو نوع من أنواع الموت، فالموتى الهابـطون إلى العالم الأسفل – في الميثولوجيا الإغريقية– يشربون في طريقهم من نبع النسيان لكي يقضوا حياة الآخرة بدون ذاكرة؛ أي: بدون تاريخ"[2].

ينسحب هذا الحظر على كل ما يهدد حياة الإنسان، فتجد العامة تحظر مرض (السرطان)، فيستعملون له اسم (الخبيث)، أو (ذاك المرض)، لذا يطلق في كثير من البيئات على الأمراض مسميات ضد حقيقتها، كتسمية العامة (الحصبة) (المبروكة)، وتسمية (الحمى) (العافية).

قد يعود حظر لفظة (الحمى)؛ لكونها من أمارات الـحِمَامِ؛ أي: الموت، لحديث "الْحُمَّى رَائِدِ الْمَوْتِ"[3]؛ أي: الحمى رسول الموت، تتقدمه كما يتقدم الرائد قومه، وكأنها تشعر بقدومه، وتنذر بمجيئه؛ لأجل هذا حظرها الناس، فاستبدلوا بها في لهجاتهم كلمات أخرى كما على لسان العامة في اللهجة المصرية تسميتها (العافية).

---

[1]- عبد السلام المُساوي: الموت بين الأسطورة والفلسفة، مجلة فكر ونقد المغربية (مجلة ثقافية فكرية مختصة بالمقالات الأدبية والنقدية والفكرية والفلسفية والتربوية)، العدد الواحد والستون، سبتمبر 2104، ص 1.

[2]- المرجع السابق، ص 1.

[3]- هذا جزء من حديث:"الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض"، وجاء بلفظ آخر "الحمى رائد الموت وهي سجن الله في الأرض للمؤمن، يحبس بها عبده إذا شاء ثم يرسله إذا شاء، ففتروها بالماء"ينظر: علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 5، 1981، ج 3 ص 319 .

– البرص يكنى عنه بالسُّوءِ، نحو: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(طه: 22)، يقول الجرجاني (ت 482 هـ):"وأعلم أن العرب تتطير من ذكر البرص، فتكنى عنه بالوضح، ومنه سُمِّيَ جذيمةُ الوضاحُ"[1].

– الجن يستخدم العوام للدلالة عليهم قول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، (الذين لا يذكرون)، (الأرواح الشريرة)، وفي بعض المجتمعات المصرية لا يجوز ذكر الشيطان والجن؛ لأنها ربما أتت عند سماع اسمها فيطلقون (الأسياد) على الجن، و(العفاريت) على الشياطين، فيشيع في الأمثلة المصرية (دستور يا سيادي)، وهو كلام يقوله العوام يعتقدون أن بين الإنس والجن ميثاقاً وعهداً.

– السحر، يقول فندريس (Vendryes): " تعد الجهة اليسرى عند كثير من الشعوب جهة السحر، جهة القوى الخفية التي لا يحسن إيقاظها. لذلك كثيرا ما قضى بالتحريم على اسم اليسار وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة، والاستعارات للتعبير عن اليسار. فإن كان العدد الأكبر من اللغات الهندية الأوربية قد احتفظت لذلك بكلمة واحدة للدلالة على اليمين، فإنها تستعمل للدلالة على اليسار كلمات متنوعة، لا تستعمل الكلمة منها في غالب الأحيان في أكثر من لغة واحدة أو لغتين، وهي حتى في هذه اللغات نفسها قد تعرضت بدورها للأقصاء والاستبدال"[2].

رابعا: <u>التقديس</u>.

ينطبق هذا على لفظ الجلالة، والملائكة، وأسماء الأنبياء، والأولياء، ففي كثير من الأحيان يحذفون اسم (الله)، ويعوضون عن ذلك بتعبيرات من قبيل (سبحانه، جل جلاله، عز وجل)، وفي الإعراب – عادة – نستخدم (لفظ الجلالة).

[1]- الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 67.

[2]- فندريس: اللغة، ص 280.

من صور التقديس عند اليهود، تجدهم لا يستخدمون اسم (Yahwe = يهوه) – معناه (الله الحي القيوم) – فهو أكثر الأسماء قداسة، وكان اليهود لا يتفوهون به، فيستخدمون (Adonai = أدوناي) العبرية، بمعنى (سيدي أو مولاي) للإشارة إلى الإله، وربما كان هذا من منطلق الخوف.

ينسحب هذا التقديس على لفظ النبي، فلا يذكر عند إيراد سيرته، وأحاديثه إلا اسم الرسول أو النبي، وقد شاع هذا التقديس في مخاطبة الحاكم بـ(أمير المؤمنين)، من أمثال هذا ما ذكره الجاحظ (ت 255 هـ) عن علة تسمية العرب جذيمة التنوخي القضاعي (ت 366 ق هـ) بجذيمة الوضاح، يقول: "كان يقال له: جذيمة الأبرص، فلما ملك قالوا على وجه الكناية: جذيمة الأبرش، فلما عظم شأنه قالوا: جذيمة الوضاح"[1]. قال الطبري (ت 310 هـ): " فقالوا: إنه كان به برص، فكَنَّت العرب عنه، وهابت العرب أن تسميه به، وتنسبه إليه، إعظامًا له. فقيل: جذيمة الوضاح"[2].

مما يدخل في باب التقديس أن يُسبق اسم المعلم بلفظة (أستاذ أو معلم)، وإن كان يدرِّس اللغة الإنجليزية يسمى (teacher)، وكان في مدارس السلطنة يجري على ألسنة أبنائنا –وإن كانت أطياف اللفظة باقية– تسمية المعلمة باسم (أَبْلَه /ablah?/)، وهي كلمة تركية تعني: (الأخت الكبيرة).

يشيع – في بعض البيئات – أن الزوجة أو الأولاد لا يستخدمون الاسم المباشر لمن هو أكبر منهم، كالأب، والزوج، والجد، أو الجدة، وإنما يكنون، تبجيلا ، كـ:(أبو فلان)، وفي بعض مناطق عُمَان يطلقون لفظة (العود) للجد، و(أمي العودة) للجدة. في اللهجات المصرية يستخدمون للجد (سِيد /sīd/)، وللجدة (سِتّ /sitt/)،

[1]- الجاحظ (عمرو بن بحر): البرصان والعرجان والعميان والحولان, تحقيق وشرح عبد السلام هارون, بيروت، دار الجيل, ط 1، 1990، ص 15.

[2]- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1987، ج 1 ص 204.

فيقولون: سِيدك، وسِتك، وفي بلاد المغرب يسبق اسم محمد بلقب (سي) اختصار لفظة (سيد)، فيقولون: سي محمد، كحال أهل مصر والسودان.

يقول الثعالبي (ت 429 هـ): "فمن ذلك: إطلاق لفظ الأَب على العم، وإطلاق لفظ الأم على الخالة، ونحو ذلك"[1]، جاء في التنزيل قول الله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة: 133)؛حيث أطلق على إسماعيل (عليه السلام) لفظ الأب وهو عم يعقوب، وقد سماه الله أباه، كما أطلق على إبراهيم (عليه السلام) وهو جده.

2. 3. وسائل تحاشي المحظور اللغوي.

إن من يتلمس الحشمة والأدب في التعبير، ولا سيما ما يتصل بالألفاظ الجنسية، أو بما يخدش حياء المجتمع، أو يمثل انتهاك حرمته، فإنه يلوذ بركن شديد، ويلجأ إلى معجم غزير حيث تعد اللغة العربية من أرقى اللغات في حسن التعبير، وتنويع فنون القول؛ لما جمعته من تهذيب الألفاظ، وسمو التراكيب، شَهِد لها بذلك القدماء والمحدثون.

يقول ابن جني (ت 392 هـ):" وذلك أنّا نسأل علماءَ العربيةِ مِمَّنْ أصلُه عَجَميٌّ وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسهِ. سألت غيرَ مرَّةٍ أبا عليٍّ عن ذلك، فكان جوابه عنه نحواً مما حكيته ... ولم نر أحداً من أشياخنا فيها يُسوُّون بينهما، ولا يُقرّبون بين حاليهما. وكأنَّ هذا موضعٌ ليس للخلاف فيه مجالٌ لوضوحه عند الكافَّةِ"[2].

[1]- الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، ص 367 .

[2]- ابن جني: الخصائص، ج 1، ص 258 .

لا يجد المتحدث باللغة صعوبة في التحاشي من التلفظ بالمحظورة، فهي تقدم له جملة من الوسائل المعينة على ذلك، منها: (استخدام الكناية والمجاز، أو الترادف)، (استخدام كلمة أجنبية، أو الرمز)، (المغايرة بين الأصوات).

2. 3. 1. <u>استخدام الكناية والمجاز، أو الترادف</u>[1].

عدل الأطباء عن استعمال كلمة (عملية = operation) إلى كلمة (intervention = تَدَخُّل) [2]؛ لأنها لا يهلع لسماعها قلب المريض، نحن" أثناء حديثنا، أو كتاباتنا الأدبية، نحاول تجنب بعض الألفاظ؛ درأً للأذى، أو ترفعا عما يرتبط بتلك الألفاظ من معان غير مقبولة اجتماعيا، أو أنها تخدش الحياء العام، أو تشمئز منه النفوس، وهذا عُرفٌ دَأَبَ القدماء على الالتزام في أعمالهم الفنية الشعرية، أو إبداعاتهم النثرية، وهو ما يعرف بالكناية"[3].

لأجل هذا يعد المجاز والكناية من أهم الوسائل التي يتوصل بها المتكلم للتعبير عن المعاني المحظورةِ أو المقدسةِ، فيعمد إليهما، أو إلى الترادف ونحوِها يقول الجرجاني (ت 482 هـ):"واعلم أنَّ الأصل في الكنايات عبارة الإنسان عن الأفعال التي تُستر عن العيون عادةً من نحو: قضاء الحاجة، والجماعِ، بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها"[4].

لهذا شاع كثيرا في الأمثلة المتقدمة استخدام الكناية أو الترادف؛ فرارا من المحظور، وكان لها في ألفاظ القرآن وعباراته أسوة حسنة، فجاء النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول (ﷺ) ثمّ كلام كبار البلغاء والفصحاء، ومن أمثلته في

---

[1] اختلف اللغويون في وقوع الترادف في تراكيب اللغة، والبحث فيه يطول ليس هنا مكانه (لمزيد بحث ينظر: رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 5، 1997 م، ص 313، وعبد الكريم مجاهد: الدلالة اللغوية عند العرب، الأردن، دار الضياء، د. ط، د. ت، ص 96).

[2] فندريس: اللغة، ص 280.

[3] محسن محمد معالي: من روائع الكناية في اللغة، ص 6.

[4] الجرجاني: المنتخب من كنايات الأدباء، ص 5.

القرآن الكريم: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾(البقرة: 223)، وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾(النساء: 21)، وقوله:﴿أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء﴾ (النساء: 43)، ومنه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾(يوسف: 23-25).

المراودة طلب الشيء برفق ولين، وقد أشار القرآن إلى قوة موقف السيدة؛ بكونه في بيتها، وهو أدعى إلى الاستجابة، وترفع القرآن عن ذكر اسمها سترا لحالها، وعدم الفائدة منه، وتعدَّى الفعل بـ(عَنْ) للمجاوزة؛ أي: راودته مباعدة له عن نفسه، أي: بأن يجعل نفسه لها، والمراودة بعد تغليق الأبواب. والنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، وهذا التركيب من مبتكرات القرآن، كأنه يريد بالنفس عفافها، وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه. فعرض القرآن القصة بعبارة كريمة، وتراكيب راقية، وألفاظ نبيلة، وجاء مثله في رغبة قوم لوط (عليه السلام) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(القمر: 37)، ومن جميل صور الكناية –أدبا ورقيا– ما جاء في قول عمر بن الخطاب للنبي (ﷺ): "حوّلْتُ رحليَ الليلة"[1]هو كناية عن اتيان المرأة من جانب الظهر في الوضع المعتاد، مثله ما استشهدت به المعاجم في بيان معنى (إرْب)[2]، أي: الحَاجَةُ بحديث أم المؤمنين

[1]- تعددت الروايات في سبب النزول، وفي من نزلت، ويبقى ما ذكرناه هو المرجح معنا؛ إن خص نزول الآية بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

[2]- أَكْثَرُ المُحَدِّثِينَ يَرْوُونَه (أَرَب) بفَتْح الهَمْزَةِ والرَّاءِ يَعْنُونَ الحَاجَةَ، وبعضُهم يَرْوِيهِ (إرْب) بكَسْرِهَا وسكون الرَّاءِ وله تَأْوِيلاَنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّه الحَاجَة. الآخر: أَرَانَتْ (بِه) العُضْوَ، وعَنَتْ (بِه) مِنَ الأَعضَاءِ الذَّكَرَ خَاصَّةً. ومعنى الحاجة هو المعنى المقدم معنا؛ لشمول المعنى، واتساع الدلالة. (الزبيدي: تاج العروس، مادة (أ، ر، ب .

عائشةَ، " كان رسولُ الله (ﷺ) أَمْلَكَكُمْ لإِرْبِه"[1]؛ أَيْ: لِحَاجَتِه، تَعْنِي أَنَّهُ (ﷺ)كَانَ أَغْلَبَكُمْ لِهَوَاهُ وحَاجَتِه.

تقع مثلُ هذه الكنايات في كلام العرب ممن لا يجسرون على تسميتها أو يتذممون من التصريح بها، قال الأستراباذي (ت 686 هـ): "الكناية في اللغة والاصطلاح أن يعبر عن شيء معين، لفظا كان أو معنى، بلفظ غير صريح في الدلالة عليه، إما للإبهام على بعض السامعين، كقولك: جاءني فلان، وأنت تريد: زيدا، وقال فلان: كيت وكيت، إبهاما على بعض من يسمع، أو لشناعة المعبر عنه، كـ(هن) في الفرج، أو الفعل القبيح، كوطئت وفعلت، عن جامعت، والغائط للحدث"[2].

جاء في كتاب مثالب الوزيرين"ماذا أرادت بتكثير أسماء الفرج مع قبحها ؟ فأجاب: لما رأوا الشيء قبيحا جعلوا يكنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حد الاسم الأول، فينتقلون إلى كناية أخرى، فإذا اتسعت – أيضا – رأوا فيها من القبح مثل ما كنوا عنه من أجله، وعلى هذا فكثرت الكنايات، وليس عرضهم تكثيرها"[3].

لذا يلجأ المتحدث متحاشيا المحظور إلى المترادف المتصل بالجنس، فالمتحدث يتحرج من ذكر الكلمة الأساس لعضو المرأة، أو الرجل، فيستخدمون بديلا، فتجد العورة، الفرج، السوءة، الهن، الذكر، القضيب، وقد وضعت العرب للعملية الجنسية الأساس بديلا فصيحا، كالمباشرة، والدخول، والمس، والطمث، والجماع،

[1] قالت السيدة عائشة:"إن كان رسول الله – ﷺ– ليقبل بعض أزواجه وهو صائم، ثم ضحكت، وأخرجاه من حديث الأسود بن يزيد عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:"كان النبي – صلى الله عليه، وسلم – يقبل، ويباشر، وهو صائم، وكان أملككم لإربه". (الحميدي: الجمع بين الصحيحين، ج 4 ص 78).

[2] رضي الدين الأستراباذي: شرح الرضي على الكافية في النَّحْو، تصحيح يوسف حسن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1982، ج 3 ص 14.

[3] التوحيدي (على بن محمد): مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار الفكر، د. ط، 1961م، ص 254.

والوطء، والمواقعة، والمضاجعة، والاتيان، والقُرب، وقد جاء القرآن بأعلى أسلوب، فقد كنى عن العمليّة الجنسية بألفاظٍ كريمة لا تخدش حياء[1].

لو تتبعنا مرادفات الفعل (نَكَحَ) –إن صَحَّ الترادف– في معجم لغوي يصرح بالألفاظ دون حظر، كـ: تاج العروس تجدها كثيرة، سنعرض بعضها عند الحديث حول المغايرة بين الأصوات.

2. 3. 2. <u>استخدام كلمة أجنبية، أو الرمز</u>.

لتحاشي المحظور اللغوي؛ تستخدم اللغة الكلمات الأجنبية أو الرمز بدلا من الكلمة العربية، كـ: كليوت، سوتيانه، كلسون، وهي عوض الألفاظ الموضوعة للملابس الداخلية، ويشيع في اللهجات المصرية تسميتها (غِيَار، ويجمع على: غِيَارَات)؛ وذلك لأنه يبدل ويُغَيَّر، فكثر هذا حتى سموا الحدث باسم الموضع.

من الجدير بالذكر أن هناك لغات ليس فيها ألفاظ أصلية (native words) للعملية الجنسية لذلك تعمد إلى استعارتها من لغات أخرى[2]، و"لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة. فتغيير حرف من الكلمة أو نقله يخفف ما تنطوي عليه من الخطر أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية. وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور"[3].

---

[1]- الرفث ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ ﴾ (سورة البقرة: 187)، والمباشرة ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ (سورة البقرة: 187) ، والقرب ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ ﴾ (سورة البقرة: 222) ، والإفضاء ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (سورة النساء: 21)، والدخول ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ (سورة النساء: 23)، والملامسة ﴿ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء ﴾ (سورة النساء: 43) ، والتغشية ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ﴾ (سورة الأعراف: 189)، والنكاح ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ (سورة النور : 3)، والطمث ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (سورة الرحمن: 56).

[2]- عبد الرحمن دركزللي: الظواهر اللغوية الكبرى، ص 133 .

[3]- فندريس: اللغة، ص 281.

بالرغم من المستوى العلمي الرفيع لعلمائنا وأدبائنا الأوائل فإنهم استخدموا كثيرا من المحظور اللغوي، وفيما يتعلق بهذا المجال يقول عمر فروّخ: "وكان قد لفت نظري ورودَ جُملةٍ في كتاب (فقه اللغة) للثعالبي هي: لعل أسماءَ النكاح تبلغُ مائة كلمةٍ عن ثقاتِ الأئمةِ بعضُها أصلي، وبعضُها مَكْني، وكنت في أثناء قراءاتي المتكررة المعاجم اللغوية، أستغرب كثرة الألفاظِ الجنسيةِ، حتى خُيِّل إليَّ أنَّه لا تخلو مادةٌ من موادِ المعجم العربي من لفظٍ جنسي دالٍ على اسم، أو فعل، أو حال لذلك الجانب من حياة البشر وحياة الحيوان، وعلة هذه الكثرة كون جانب كبير منها من باب الكناية، فقد كان العربيُّ يكني به عن المدرك الجنسيّ بلفظٍ ... فإذا اشتهر هذا اللفظُ ودلَّ على ما كان يُكنى عنه صراحةً استحيا العربيُّ من الاستمرارِ في استعمالِه فانتقلَ إلى كنايةٍ جديدةٍ غامضةٍ.

من الأمور اللطيفة أن صاحب (تاج العروس) تحدث في مادة (كسس) طويلا عن عضو المرأة، ولم يدع بيتا من الشعر إلا أورده، ولا قولا فيه إلا رواه، ثم شعر بالخجل فاعتذر إلى القارئ عما صنع، فقال:"وأَنا أَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى من ذلك، وإِنّما استطردتُ به هُنَا بَيَانًا لوُرُوده في كلامِ المولَّدينَ، وإِن لم يُسْمَعْ في الكلام القديم، . . .، على أَنَّا إِذا نَظَرْنا من حيثُ اللُّغَةُ وَجَدْنا له اشْتِقَاقًا صَحيحًا، من الكَسِّ الذي هو الدَّقُّ الشَّديدُ، سُمِّيَ به لأَنَّهُ يُدَقُّ دَقًّا شَديدًا، فلْيُتَأَمَّل"[1].

اهتمت الدراسات اللغوية بالظاهرة، فأنشئت مجلات مختصة بالألفاظ المحظورة، كمجلة (Maledicta) [2]، ومن صور الاهتمام بهذه الظاهرة ما قام به

[1]- الزبيدي: تاج العروس، مادة (ك، س، س).

[2]- لها عنوان فرعي آخر: (The Interntional Journal of Verbal Aggression) عبد الرحمن دركزللي: الظواهر اللغوية الكبرى، ص 135.

اللغوي (Jay Powell) من جَمْعِ المفردات التي يستخدمها الأستراليون للتعبير عن الألفاظ المحظورة[1].

2. 3. 3. المغايرة بين الأصوات.

تلجأ الجماعة اللغوية إلى المغايرة بين أصوات الألفاظ، أو التحريف الصوتي، وإيقاع الإبدال في صورة الكلمة المحظورة في عرفهم؛ طلبا للخفة، ورغبة في مساس الألفاظ، كما طلبوها بالكناية، واستعمال المرادف من الألفاظ، يقول فندريس (Vendryes):"لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة. فتغيير حرف من الكلمة أو نقله يخفف ما تنطوي عليه من الخطر أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية. وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور"[2].

يرى فندريس (Vendryes) أن الإبدال الصوتي يخفف ما تنطوي عليه الكلمة من حظر أو استهجان، دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية، وقد توقف علماؤنا عند هذه الظاهرة ودرسوها تحت باب الاشتقاق، قال الجرجاني (ت 816 هـ):

-1

الفعل المحظور	الفعل البديل
تبول (urinate)	– اِسق الحصان (Water the horse). – اعصر الليمونة (Squeeze the lemon). – الوِ / اثنِ الحية ذات الأجراس (Wring the rattlesnake). – انظر هل رفس الحصان حرامه (See if the horse has kicked off his blanket).
مارس الجنس (have intercourse)	– اغمس الفتيل (Dip the wick). – العب لعبة المستشفى (Play hospital). – العب لعبة سيارات وكراجات (Play cars and garages). – افعل ما يفعل الجرذ في المجرى (Go like a rat up a drain up).

-2 فندريس: اللغة، ص 280.

"الاشتقاق نزع لفظ من آخر، بشرط مناسبتهما معنى وتركيبا، ومغايرتهما في الصيغة"[1].

عقد ابن جني (ت 392 هـ) في الخصائص بابا في الاشتقاق، وقسمه إلى اشتقاق صغير، واشتقاق أكبر[2]، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلا من الأصول فتتقَّراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه. أمّا الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد.

جعل بعض الدارسين الاشتقاق ثلاثة، مع خلاف بين الصرفيين في هذا، ليس هذا مجاله، وأول الثلاثة اشتقاق الصغير، ثم الاشتقاق الكبير، فالاشتقاق الأكبر[3]، لعل (الاشتقاق الأكبر) يكشف لنا سر مغايرة الأصوات بين الألفاظ المحظورة، ويوضح التلاقي الدلالي بين كثير من الألفاظ المتقاربة في البني الصرفية في الدلالة على النكاح[4].

---

[1]- الجرجاني: التعريفات، حرف الألف .

[2]- ابن جني: الخصائص، ج 1، ص ص 490 – 491.

[3]- "الاشتقاقُ أخذُ كلمةٍ من كلمة، بشرطِ أن يكون بين الكلمتين تناسبٌ في اللفظ والمعنى وترتيب الحروف؛ مع تَغايرٍ في الصيغة، كما تأخذُ (أُكْتُبْ) من (يَكْتُبْ)، وهذه من (كَتَبَ) وهذه من (الكِتَابَة)" الغلاييني (الشيخ مصطفى): جامع الدروس العربية، بيروت، المكتبة العصرية، ط 35، 1998، ج 1 ص 208.

وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف والتركيب، وإذا كان بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب فهو الاشتقاق الكبير،ك: جبذ من الجذب، وهذا يُدرس في القلب المكاني. أما الاشتقاق الأكبر فهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج، نحو: (نَهَقَ ونَعَقَ). ينظر: (الجرجاني: التعريفات، حرف الألف).

[4]- (ناك – باك – داك) جاء في تاج العروس مادة (ن ي ك)"ناكها يَنيكُها نَيكًا: جامَعَها: وهو أَصْرَح من الجِماع"، فمن أجل هذا صار الفعل (نَاكَ) محظورا حقيقة ومجازا، مع جريانه – مجازا – على لسان العرب، فقالوا: تَنَايَكَ الْقَوْمُ؛ أَيْ: غَلَبَهُمُ النُّعَاسُ، تَنَايَكَتِ الْأَجْفَانُ؛ أَيْ: اِنْطَبَقَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

عند الوقوف على كثير من المعاجم اللغوية كـ: لسان العرب، والمصباح المنير، تلحظ فيها سمة الحظر، جاء في لسان العرب مادة:(نيك) "النَّيْكُ معروف، والفاعل نائِكٌ، والمفعول به مَنِيكٌ، ومَنْيُوكٌ، والأُنثى مَنْيُوكة، وقد ناكَها يَنيكها نَيْكاً والنَّيّاك الكثير النَّيْك شدد للكثرة".قال الفيومي (ت 770 هـ):"ناكَهَا (نَيْكًا) من الألفاظ الصريحة في الجماع، فهو (نَيَّاكٌ) و(نِيَّاكٌ)، والمرأة (مَنِيكَةٌ) و(مَنْيُوكَةٌ) على النّقص و التّمام".

أمَّا الفعل (بَاكَ) فهو مساو لدلالة الفعل (نَاكَ)، يقال: بَاكَ الْحِمَارُ الْأَتَانَ إِذَا جَامَعَهَا، قال مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ):"ومن المَجازِ: بَاكَ الْمَرأَةَ بَوْكاً: جامَعَها، نقَلَه ابنُ بَرِيّ قال: وهو مُستَعارٌ من بَوْكِ الحِمار الأَتانَ"، واستشهد الزبيدي بقول أَبي عَمْرو: فباكَها مُوَثَّقُ النِّياطِ ليسَ كبَوْكِ بَعْلِها الوَطْواطِ

نقل مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ) عن أَبي عَمرو قوله:"داكَ الْمَرْأَةَ يَدُوكُها دَوْكًا، وباكَها يَبُوكُها بَوْكًا: جامَعَها". (ابن دريد: جمهرة اللغة، مادة: ر، ط، و).

– (مَعَجَ – مَلَجَ – مَهَجَ) "مَعَجَ: جَامَعَ. يقال: مَعَجَ جاريَتَه يَمْعَجُها: إِذا نَكَحَها"(الزبيدي: تاج العروس، مادة (م، ع، ج). "مَلَجَ الْمَرْأَةَ: نَكَحَهَا. واستعدى أعرابي على رجل والي البصرة فقال: قال لي: ملجت أمك، فقال الرجل: كذب إنما قلت: لمج أمه؛ أي: رضعها".(الزمخشري: أساس البلاغة، مادة: م، ل، ج)، وجاء في تاج العروس"لمج: نكح، ملج: رضع،"ذكر الزبيدي:"لَمَجَ الْمَرْأَةَ: نَكَحَها. وذكَرَ أَعرابيٌّ رجُلاً فقال: مالَه لَمَج أُمَّه – فَرفَعوه إِلى السُّلطان. فقال: إِنّما قلت: مَلَجَ أُمَّه. فخَلَّى سبيلَه. مَلَجَ أُمَّه: رَضَعَها"(الزبيدي: تاج العروس، مادة (ل، م، ج). وذكر في مادة (م، ل، ج) مَلَجَ الْمَرْأَةَ: كلَمَجها نَكَحَها"(المرجع السابق، مادة (م، ل، ج). "مَهَجَ جاريَتَه : نَكَحها"(الزبيدي: تاج العروس، مادة (م، هـ، ج).

– (طَبَزَ – طَحَزَ – طَحَسَ) "الطحس كلمة يكنى بها عن الجماع ويقال الطحز". (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: ط، ح، س). جاء في القاموس المحيط:"طَبَزَها: جامَعَها.والطَّبْزُ: المَلْءُ لِكُلّ شيءٍ، الطُّنْبَرِيز كزَنْجَبِيلٍ: فَرْجُ الْمَرْأَةِ، الطَّحْزُ: كِنايَةٌ عن الجِماعِ"(الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة: (ط، ب، ز).

– (خَنِثَ – غَنِثَ) جاء في لسان العرب في مادة: (خ، ن، ث):"خَنِثَ الرجلُ خَنَثاً فهو خَنِثٌ وتَخَنَّثَ وانْخَنَثَ تَثَنَّى وتَكَسَّرَ والأُنثى خَنِثَةٌ وخَنَّثْتُ الشيءَ فتَخَنَّثَ أَي عَطَفْتُه فتَعَطَّفَ والمُخَنَّثُ من ذلك للِينهِ وتَكَسُّره وهو الانْخِناثُ والاسم" (ابن منظور: لسان العرب، مادة: خ، ن، ث). وذكر في مادة: (غ، ن، ث):"(غنث) غَنِثَ غَنَثاً شَرِبَ ثم تَنَفَّس، قال: (قالتْ له باللهِ يا ذا البُرْدَيْن لَمَّا غَنِثْتَ نفساً أَو اثْنَيْن)، قال الشيباني: الغَنَثُ – ههنا – كناية عن الجماع""(ابن منظور: لسان العرب، مادة: غ، ن، ث).

– (دَعَسَ – دَعَزَ – دَعَظَ) الدعس: الطعن، وقد يكنى به عن الجماع. (الزبيدي: تاج العروس، مادة (د، ع، س). دَعَزَ"قال ابنُ دُرَيْد: هو الدَّفْع قال: ربما كُني به عن الجِماع . يقال: دَعَزَ الرجلُ الْمَرْأَةَ دَعْزاً: جامَعَها"الز الزبيدي: تاج العروس، مادة (د، ع، ز). لمزيد تفصيل ينظر:"ابن دريد: جمهرة اللغة، مادة: (د، ع، ز).

"(دَعَظَ) قالَ اللَّيْثُ: إِدْخالُ الذِكَرِ في الفَرْجِ كُلِّهِ. نَصُّ اللَّيْثِ: إِيعَابُ الذَكَرِ كُلِّهِ في فَرْجِ الْمَرْأَةِ. يُقَالُ: دَعَظَها به، ودَعَظَهُ فِيها، وكَذلِكَ دَعْمَظَهُ فِيها، إِذا أَدْخَلَهُ كُلَّهُ فِيها . وقالَ ابنُ دُرَيْدٍ: الدَّعْظُ يُكْنَى به عن الجِمَاعِ. يُقَالُ: دَعَظَهَا يَدْعَظُهَا دَعْظاً أَي نَكَحَها""الزبيدي: تاج العروس، مادة (د، ع، ظ). لمزيد تفصيل ينظر:"ابن دريد: جمهرة اللغة، مادة: (د، ع، ظ).

الخاتمة العامة

إن قضية المحظور اللغوي ليست وليدة العصر الحديث أو أحد إفرازاته، وإنما تعود إلى أزمان سحيقة، فهو صورة من صور تأثير سلطة المجتمع في إنتاج المثقف اللغوي، مما يفرض عليه احترامَ قيودِ المجتمعِ؛ فيجعل تراكيبه مرنة تتناسب وسلطة المتلقي، فالكلام المنطوق يحتاج إلى شكل مرن، وليس إلى بناء جامد من التمثيل الشكلي، وهذا الحظر اللغوي ليس قصرا على لغة ما، إنما هو شائع في اللغات، فهو شكل لغوي واقعي، وجد له ما يبرره في المعطيات اليومية لاستعمالات لساننا، تعبر عن مواقف البشر، وتعكس نفسيتهم، وجوانب شخصيتهم؛ مما أغرانا بدراسة أسباب هذه الظاهرة، وسبل تحاشي المثقف المحظور اللغوية في إنتاجه، فعالجنا الظاهرة بما صدر عما تقرر في النظرية التداولية من مفاهيم، وإجراءات تتحكم في آليات إنتاج الكلام طبقا للأغراض التواصلية المختلفة، وقد استهدفنا إنفاذ البصر في بنية الجملة الخطابية المنجزة، انطلاقا من مبدأ التكوين الدلالي المنوط بالمتكلم المنجز صنوف الخطاب المختلفة، مركزين من خلال المنهج التداولي على ما يتصل بالظاهرة المحظور اللغوي، وما يفرضه المجتمع كسلطة متلقية مؤثرة في رسالة المثقف.

جاء العمل إجابةً عن السؤال: كيف يتواصل شركاء الاتصال في ظل المحظور اللغوي؟، ووزعنا مسائله في بابين رئيسين، عرضنا في الأول المقاربات اللغوية التي

– (رَطَأَ–رَطَو)الرطْو يُكنى به عن الجِماع، رَطاها يرطوها رَطْواً، وربما هُمز فقيل: رَطَأها يَرْطَؤها رَطْأً. والرَّواطي: مواضع معروفة.(ابن دريد: جمهرة اللغة، مادة: ر، ط، و).

– (وَجَأَ – خَجَأَ)خَجَأَ الْمَرْأَةَ خَجْأً جامَعَ. (الزبيدي: تاج العروس، مادة (خ، ج، أ). وَجَأَ الْمَرْأَةَ: جَامَعَهَا وهو مَجاز. (المرجع السابق: مادة (و، ج، أ). (ابن دريد: جمهرة اللغة، مادة: ر، ط، و).

– (نَشْنَش – مَشْمَشَ) قال أبو منصور الأزهري (ت 370 هـ):"قال أبو عبيد: نَشْنَش الرجل الْمَرْأَةَ ومشمشها، إذا نكحها، وأنشد: بَاكَ حُيَيٌّ أُمَّهُ بَوْكَ الْفَرَسْ ... نَشْنَشها أَرْبَعَةً ثُمَّ جَلَس"(أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، مادة: ن، ش، ش). جاء في لسان العرب:"رأَيت في حواشي بعض الأُصول البَوْكُ للحمار والنَّيْك للإنسان ونَشْنَشَ الْمَرْأَةَ ومَشْمَشها إِذا نكحَها"(ابن منظور: لسان العرب، مادة: ن، ش، ش).

اهتمت بالدلالة والخطاب، وركائز نجاح القدرة التواصلية، أمَّا الباب الآخر فاهتم بعرض ظاهرة المحظور اللغوي (Taboo)، من خلال التعريف به، وبيان أسبابه، ووسائل تحاشيه، والتلطف عند إنتاج الرسالة؛ لهذا اكتنف هذا الباب محوران: عرضنا في الأول أهم دواعي ظاهرة المحظور اللغوي في لساننا، وتبين لنا من أهم الأسباب الجالبة إياه في التراكيب كالخجل، والاشمئزاز، والخوف، والتقديس.

أمَّا الآخر فيمثل وجهة نظر الباحث إلى هذا الموضوع، وهو طريقة معالجة تلك المظاهر في ذهن مستعمل اللسان العادي، ببيان أهم سبل رفع المحظور اللغوي، أو محاولة التقليل منه كاستخدام الكناية أو المجاز، أو الترادف، أو التمهيد، أو الاستعانة بالكلمة الأجنبية، أو اللجوء إلى البديل عن اللفظة كالرمز أو الإشارة، أو التحريف الصوتي.

قائمة المصادر والمراجع

جعلنا في هذه القائمة من المصادر والمراجع المتعلقة بموضوعنا من قريب أو بعيد، وقد أسقطنا من قائمة المصادر والمراجع الدواوين الشعرية، وسرنا في ترتيب هذه القائمة وفق الترتيب الألفبائي مع إهمال (ابن، أل التعريفية)؛ تسهيلا وتيسيرا.

- القرآن الكريم:
برواية حفص عن عاصم.

- الآمدي (محمد بن علي):
الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرازق عفيفي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 1، 1981.
- إبراهيم أنيس:
دلالة الألفاظ، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1980.
- ابن الأثير (أبو الفتح نصر الله بن مُحَمَّد الموصلي):
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّيْن عَبْد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ط 1، 1995.
- أحمد أبو زيد:
مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، الرباط، دار الأمان، د. ط، 1989م.
- أحمد عبد السلام:
التحليل النحوي العقدي (بحث في أثر المعتقدات في الدرس اللغوي)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، العدد (الثاني عشر)، 1997- 1998.

- أحمد علي محمد:
جَدَلُ الخطاب والمعنى، مجلة الموقف الأدبي، العدد الثامن والتسعون بعد المائة الثالثة، حزيران 2004.
- أحمد بن فارس:
الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د. ط، 1977.
معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجليل، ط 1، 1991.

- أحمد المتوكل:
دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1، 1986.
- أحمد مختار عمر:
علم الدلالة، الكويت، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط 1، 1982، 1992.
- الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد الهروي):
تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، د. ط، د. ت.
- إسماعيل العجلوني:
كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط3، 1983.
- اندري مارتني:
مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة سعدي الزبير، الجزائر، دار الآفاق، د. ط، د. ت.
- أولمان:
دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، د. ط، 1992م.
- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل):
الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق وتعليق مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط3، 1987.
- بدرية الإسماعيلية:
ملح، مجموعة قصصية، البرنامج الوطني لدعم الكتاب عبر مؤسسة الانتشار العربي.
- ابن بطال القرطبي:
شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، مكتبة الرشد، ط 2، 2003م.

– البغدادي (عبد القادر بن عمر):
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريف، وإميل بديع اليعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1998م.
– بكر بن عبد الله أبو زيد:
معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ، الدمام، دار ابن الجوزي، ط 1، 1989م.
– تمام حسان:
اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة، عالم الكتب، ط 5، 2006.
– التوحيدي (على بن محمد):
مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار الفكر، د. ط، 1961م.
– الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد):
رسائل الثعالبي، القاهرة، مطبعة الحلبي، ط 2، 1954.
فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: سليمان سليم البواب، دمشق، دار الحكمة، ط 2، 1989م.
الكناية والتعريض، بيروت، دار الكتب العلمية: ط 1، 1984م.
– الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):
البرصان والعرجان والعميان والحولان, تحقيق وشرح عبد السلام هارون, بيروت، دار الجيل, ط 1، 1990.
البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، ط 1، 1968.
الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، د. ط، 1996.
– الجرجاني (أبو العباس أحمد بن محمد):

المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، بيروت، دار الكتب العلمية: ط 1، 1984م.

– الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن):

دلائل الإعجاز، تحقيق سعد كريم الفقي، القاهرة، دار اليقين، ط 1، 2001.

– الجرجاني (علي بن محمد بن علي):

التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 1985.

– ابن الجزري (أبو الخير محمد بن الجزري الدمشقي):

التمهيد في علم التجويد، تحقيق علي البواب، الرياض، مكتب المعارف، ط 1، 1985م.

– ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني):

الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2001.

– ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد):

أخبار الحمقى والمغفلين، بيروت، المكتب التجاري، ط 1، د. ت.

– جون ليونز:

اللغة وعلم اللغة، لبنان، دار النهضة العربية، ط 1، 1981.

اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق، مراجعة يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1987.

– الجوهري (إسماعيل بن حماد):

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1987.

– حازم القرطاجني (أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن القرطاجني):

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخواجة، تونس، دار الكتب الشرقية، 1966.

- أبو حامد الغزالي (محمد بن محمد الغزالي):
إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1983.
- حسام فرج:
نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، القاهرة، مكتبة الآداب، ط 1، 2007.
- حلمي خليل:
الكلمة (دراسة لغوية و معجمية)، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 1980.
- حمادي صمود:
التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.

- حميد سمير:
النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
- الحميدان، ومحمود عبد الله الحميدان، وعبد الجواد محمود:
بعض المحاذير اللغوية الواجب مراعاتها عند ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم (تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل)، المنعقدة في 23 - 24 / 4 / 2002، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- الحميدي (محمد بن فتوح):

الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق علي حسين البواب، بيروت، دار ابن حزم، ط 2، 2002.

– حنان الشيخ:

رواية مسك الغزال، بيروت، دار الآداب، ط 1، 1988م.

– الخطيب البغدادي (أحمد بن على بن ثابت):

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، ط 1، 1983.

– الخطيب القزويني (أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني):

الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت، دار إحياء العلوم، ط 4، 1998.

– ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون):

مقدمة، بيروت، دار صادر، ط 1، 2000.

– ابن دريد (أبو بكر بن محمد بن الحسن الأزدي):

جمهرة اللغة، تحقيق رمزي بعلبكّي، بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1987م.

الملاحن، تصحيح وتعليق إبراهيم الطفيش، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1987.

– دي سوسير:

دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1985.

– الدينوري (أبو بكر أحمد بن مروان المالكي):

المجالسة وجواهر العلم، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت، دار ابن حزم، والبحرين – أم الحصم، جمعية التربية الإسلامية، د. ط، 1998.

– رابح بو معزة:

تيسير تعليمية النحو (رؤية في أساليب تطوير العملية التعليمية من منظور النظرية اللغوية)، القاهرة، عالم الكتب، ط 1، 2009.

– راضية بو بكري:

التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقاربة نظرية، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد (399)، يوليو – تموز، 2004.

– ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن علي بن رشيق):

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ط 5، 1981.

– رضي الدين الأستراباذي:

شرح الرضي على الكافية في النَّحْو، تصحيح يوسف حسن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1982.

– رمضان عبد التواب:

فصول في فقه اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 5، 1997 م.

– الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي):

تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، دار صادر، د. ط، 1966م.

– الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد):

أساس البلاغة، إشراف قسم التحقيق في دار النفائس، دمشق، دار النفائس، ط 1، 2009.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 2006.

المستقصى في أمثال العرب، بيروت، دار الكتب، العلمية، ط 2، 1987.

– سالم مبارك الفلق:

اللغة العربية التحديات والمواجهة، اليمن،حضرموت،مكتبة الحسيني ، د. ط، د. ت.

– السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد):

مفتاح العلوم، حققه وقدم له وفهرسه عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 2011.

– سهير إبراهيم محمد حسن:

صور التلطف في الأحاديث النبوية بصحيح البخاري (دراسة في ضوء علم اللغة الاجتماعي)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد السيد سليمان العبد، 2011.

– سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر):

الكتاب، تحقيق إميل يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1999.

– ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده):

المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2000.

– سيغموند فرويد:

الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، اللاذقية، دار الحوار، ط 1، 1983م.

– الشهاب الخفاجي:

ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، الطبعة: الأولى، 1967.

– شوقي ضيف:

في النقد الأدبي، دار المعارف، بمصر، د. ط، د. ت.

– الصاحب بن عباد (إسماعيل بن عباد):

المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، بيروت، عالم الكتب، ط 1، 1994.

- صلاح فضل:
بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1، القاهرة، الشركة المصرية العالمية، وبيروت، مكتبة لبنان، ط 1، 1996.
- صلاح منتصر:
مقالة (الصين بين الأسطورة والخرافة)، مجلة الشباب، مجلة الشباب هي مجلة شهرية تصدرها مؤسسة الأهرام للصحافة والنشر وهي أكبر مؤسسة صحفية في الشرق الأوسط، صدر العدد الأول من المجلة عام 1977.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير):
تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1987.
- ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب):
كتاب بغداد، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 3، 2002.

- عبد الرحمن دركزللي:
الظواهر اللغوية الكبرى في العربية، سورية، حلب، دار الرفاعي للنشر، ودار القلم العربي، ط 1، 2006.
- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي):
العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الإبياري وعبدالسلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، د. ط.
- عبد الرحمن الحاج صالح:
الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ندوة تعليم اللغة العربية، 1984.
- عبد السلام المُساوي:

الموت بين الأسطورة والفلسفة، مجلة فكر ونقد المغربية (مجلة ثقافية فكرية مختصة بالمقالات الأدبية والنقدية والفكرية والفلسفية والتربوية)، العدد الواحد والستون، سبتمبر 2104.

– عبد الكريم مجاهد:

الدلالة اللغوية عند العرب، الأردن، دار الضياء، د. ط، د. ت.

– عبد الله الغنيمان:

شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري،المدينة المنورة،مكتبة الدار، ط 1، 1985.

– عصام أبو زلال:

التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم دراسة دلالية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 2001.

– علاء الدين المتقي (علي بن حسام الدين):

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 5، 1981.

– علي عبد الواحد وافي:

اللغة والمجتمع، المملكة العربية السعودية، شركات مكتبات عكاظ، ط 4، 1983م.

– غادة السمان:

رواية (بيروت 75) بيروت، منشورات غادة السمان، ط 1، 1975).

– الغلاييني (الشيخ مصطفى):

جامع الدروس العربية، بيروت، المكتبة العصرية، ط 35، 1998.

– الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد):

معاني القرآن،اعتنى به فائق محمد خليل،بيروت،دار إحياء التراث العربي،ط 1،2003.

– فرانسواز أرمينكو:

المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، لبنان، مركز الإنماء القومي، د. ط، د. ت.

– الفراهيدي (الخليل بن أحمد):

كتاب العين، تحقيق مهدى المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بيروت، مطبعة دار ومكتبة الهلال، د. ط، د. ت.

– أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد):

الأغاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط 1، د ت.

– فرحان اليحيى:

اللغة الوظيفية والدلالة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد السادس والأربعون بعد المائة الرابعة، حزيران 2008.

– الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب):

القاموس المحيط، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1987م.

– الفيومي (أبو العباس أحمد بن محمد):

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية ، د. ط ، 1978 م.

– القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، تونس، المركز الوطني للترجمة، 2010.

– ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم):

تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، دار التراث، ط 3، 1973.

الجراثيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، قدم له مسعود بوبو، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، د. ط، 1997.

– ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر):

الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت.

– كارل بونتتج:

المدخل إلى علم اللغة،ترجمة سعيد حسن بحيري،القاهرة،مؤسسة المختار،ط2، 2006.

كريم زكي:

المحظورات اللغوية، مكتبة الانجلو المصرية، د. ط، 1985م.

– مازن الوعر:

قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 1، 1988.

– المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد):

الكامل في الأدب، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1986م.

– محسن محمد معالي:

من روائع الكناية في اللغة، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية، ط 1، 2012.

– محمد حماسة:

النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، القاهرة، دار غريب، ط 2، 2006.

– محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي:

معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ط 1، 1985م.

– محمد صالح البنداق:

المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، عرض موجز بالمستندات لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم مع نماذج لترجمة تفسير معاني الفاتحة في ست وثلاثين لغة شرقية وغربية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2، 1983.

– محمد الظفيري:

فن الاتصال اللغوي ووسائل تنميته، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط 1، 2006.

– محمد عفيف الدين دمياطي:

محاضرة في علم اللغة الاجتماعي، سورابايا مطبعة دار العلوم اللغوية، ط 1، 2010.

– محمد علي الخولي:

معجم علم اللغة النظري، بيروت، مكتبة لبنان، ط 1، 1982.

– محمد يونس:

مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، بيروت، دار الكتاب الجديد، د .ط، د. ت.

– محمود أحمد نخلة:

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2002.

– محمود بن عبد الرحيم صافي:

الجدول في إعراب القرآن، دمشق، دار الرشيد مؤسسة الإيمان ط 4، 1997.

– محيي الدين محسب:

الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي، مجلة علوم اللغة، القاهرة، دار غريب، العدد الثاني، 1998.

– مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري):

الجامع الصحيح المسمى(صحيح مسلم)، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة، د. ت، د. ت.

– المطرّزي (أبو الفتح ناصر الدِّين):
المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب، مكتبة دار الاستقامة، ط 1، 1979.
– المُفضّل الضبي:
الفاخر في الأمثال، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1960.
– الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة):
البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق، دار القلم، ط 1، 1996.
– فندريس (جوزيف):
اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، 1950.
– ابن منظور (محمد بن مكرم):
لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ط، د. ت.
– مهدي عرار:
ظاهرة اللبس في العربية جدل التواصل والتفاصل،عمَّان، دار وائل، ط 1، 2003.
– نزار قباني:
الأعمال الكاملة، مصر، دار صفا، ط 1، 2010.
– هادي نهر:
علم اللغة الاجتماعي عند العرب، بيروت، دار الغصون، ط 1، 1988.
– أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل):
الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق لي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط 1، 1986.
– يحيى أحمد:

الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، الكويت، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989.